

3 me Année, No. 93.

Lundi-15-4-1935

الرسالة

مجلة أسبوعية للآداب والعلوم والفنون

ARRISSALAH

Revue Hebdomadaire Littéraire
Scientifique et Artistique

صاحب المجلة ومديرها
ورئيس تحريرها المسئول
احمد حسن الزيات

الادارة
بشارع المبدولى رقم ٣٢
عابدين — القاهرة
تليفون رقم ٤٢٣٩٠

بدل الاشتراك عن سنة
ص
٦٠ فى مصر والسودان
٨٠ فى الأقطار العربية
١٠٠ فى سائر الممالك الأخرى
١٢٠ فى العراق بالبريد السريع
١ ثمن العدد الواحد

الأعلانات يتفق عليها مع الادارة

العدد ٩٣ « القاهرة فى يوم الاثنين ١٢ محرم سنة ١٣٥٤ — ١٥ ابريل سنة ١٩٣٥ » السنة الثالثة

فهرس العدد

العام الهجرى

١٣٥٤

ها هو ذا العام الجديد يهلّ ، فأين السجل ؟ تعال نقرأ ما خطه التاريخ فى صفحتنا التى طواها الدهر أمس ! هل انفرجت خوانق الأغلال قليلا عن الرقاب العانية ؟ هل انجلت غواشى الغفلة عن العيون السادرة ؟ هل انجاب قتام الذل عن النفوس العزيزة ؟ هل ائتلفت على عوادى الخطوب هذه القلوب الشتيتة ؟ هل اقتنع المعتدون والمستبدون أننا ماض ينبعث ، ومجد يستيقظ ، وأمة تريد أن تستأنف بلاءها فى جهاد الناس ، وتستعيد مكانها من صدر الوجود ؟

رويدك لاتطل النظر فلن تجد فيه وا أسفاه إلا عُثَر عينيك !! لقد طُويت هذه الصفحة كما طويت قبلها تلك الصفحات على بياض غير ناصع ! وإن تاريخنا لا يزال يكتب عرضاً فى تاريخ الدول ، أو لَحَقا فى تاريخ انجلترا ! فليس له فى التقويم العربى حساب جار ، ولا فى سفر العالم فصل مستقل !

لو كنا نسير إلى الوراء لعثرنا يوماً بمجد المصريين والعرب ،

ولو كنا نسير إلى الأمام لظفرنا يوماً بمجد الفرنسيين والانجليز ، ولكننا سقطنا من الونى والوهن فى طريق الانسانية ، يخطو فوقنا الركب ، ويدور علينا الفلك ، حتى رن فى أسماعنا صوت الأجداد يُهيب صارخاً بالرقود ، فنهضنا نهضة المُنْبَتّ الحائر نستلهم الأعراق ، ونستنبئ الدلائل ، ونتملق الأحداث ، ونستحث القادة ؛ ثم انقضى على هذه النهضة المتلكئة قرن ، وما نزال شملا يتجمع ، وأملا يتطلع ، وعزماً يشبّ

متى السير إذن يا هادى المحجة ؟! لقد مللنا قرع الطبول ودقّ البشائر ، وقتلنا الزمن فى تأييد رأى وتفنيد رأى ، وأضعنا الجهد فى عقد لواء وحل لواء ، وخجلنا من هذا الموقف السلبى الذى يرصد الأُهب فى الخيال ، ويصور الخطط بالشعر ، ويطلب النصر فى أحلام المنى !

* * *

انطوت صفحة العام المنصرم ولم تسجل فى أوطان العروبة غير الأسى والألم : سجلت فى مصر كما سجلت من قبلُ أهواء تتصارع ، وأطماعا تتعارض ، وفردية تطغى ، وأثرة تسف ، وخصومة تكيد ، وشعباً يكابد داء الضرائر فى زعمائه ، ويكاد يستجير بعدوه من أوليائه ، وينظر فيرى فى يده العتاد وفى طبعه الاستعداد ، ثم لا يزال برغم ذلك وضيع الشأن فى الحياة ، مسلوب الارادة فى الحكم ، مبذول المقادة للغاصب

وفى العراق سجلت أحداثاً ترمض القلوب وتثير دفائن الهم ، من دبيب العقارب بين الجيرة ، وسعى النمائم بين الاخوة ، وتمكين الطائفية للنفوذ الدخيل !

وفى الشام سجلت تفريق الكلمة بالوعود ، وتمزيق الجسم بالحيلة ، وتسكين الألم بالمرقد ؛ كذلك سجلت فى المغرب دموعا يمسحها اللاطم بكفه ، ووشائج يقطعها الظالم بسيفه ، ونفوساً ينزو بها الحِفاظ للجنس والدين فتركض فى القيد ، وتضطرب اضطراب المهيض فى القفص

ثم سجلت فى شبه الجزيرة فعل الفقر البئيس فى دار الهجرة وملاذ الدعوة ، ومُطمأنّ الضريح المقدس

أما السطور الحمر التى خطتها لفلسطين البائسة ، فمن صبيب دمائها كان المداد ، ومن نشيج بكائها كان الكلِم : هى اعلان يبيعها القهرى فى سوق السياسة ، يتزايد فيه أهلها العرب بالحق – والحق رأى واجتهاد ، وبالقانون – والقانون ورق ومداد ؛ ثم يهود العالم كله بالذهب – والذهب إله وشيطان ، وبانجلترا – وانجلترا أسطول وبرلمان ! فالعرب فى فلسطين مقضى عليهم بالقتل والتشريد ، وإخوانهم فى الأوطان الأخرى ينظرون إليهم نظر العواد إلى المريض المشفِى ، يسعفونه بالدعاء ، ويؤاسونه بالبكاء ، والدعاء لا يرفع الواقع ، والبكاء لا يدفع الموت

* * *

هذه عناوين الصفحة المطوية ليس بينها عنوان جميل ، فليت شعرى ماذا تخط أقلام القدر فى صفحة العام الجديد ؟!

لو كنا ننتفع بالذكريات ، ونستفيد من العِظات ، لما بددنا الجهود فى التجارب ، وأفسدنا الأمور بالتردد ؛ إن لنا تاريخاً إنسانياً حافلا فيه لكل عظيمة ذكرى ، ولكل ملمة تجربة ؛ وأن لنا دستوراً إلهياً كاملا فيه لكل مضلة هدى ، ولكل قضية بينة ؛ فاذا التمسنا دليلنا من روح السلف ، واقتبسنا هدانا من وحى الله ، استقمنا على الطريقة التى نهجها الرسول ، فتوافينا معاً على الغاية ، وانتهينا جميعاً عندها إلى الوحدة

إن الرسالة العربية التى هاجرت مغلوبة من مكة إلى المدينة ، سافرت غالبة من الشرق إلى الغرب ، بفضل مبدئها الإلهى الذى قامت عليه ودعت إليه وفازت به ، وهو توحيد الله ، وتوحيد الكلمة ، وتوحيد القوى ، وتوحيد الغاية

وقد استوثق الأمر لأهلها ما استمسكوا به ؛ فلما تراخت العُرى بينهم وبينه تقاذفتهم السبل ، وتقاسمتهم الأطماع ، وصار بهم التخاذل والتواكل إلى ما هم عليه اليوم



احمد حسن الزيات

مساجلة الرمال

للآنسة النابغة «مى»

[أنواج عديدة من الرمل تتململ شيئاً فشيئاً ، فوجاً بعد فوج ، وتتحدث فى أواخر الفلس]

— الظلام يولى هارباً ، وعمود الفجر يكاد ينشق . عما قليل تشرق الشمس فلا يلبث قرصها أن ينقلب أتوناً يصلينا نار السعير .

— سيان لدينا الليل والنهار . كل يوم ننتظر من الظلام عذوبةً تحت أنوار الكواكب الواهية . ولكن حرارة الشمس تظلُّ مستودعة فى كياننا فنلبث فى اتقادٍ واضطرام يوماً بعد يوم ، وليلةً بعد ليلة

— إنما جعلتنا الأقدار متحاذيات متلاصقات لنفرش هذه الأرض ونكوّن منها الصدأة المحترقة . يتهموننا بأن لمسنا يشوى اليد والقدم شيًّا ، ولكن ألسنا نعانى فى كياننا المقدورَ علينا من عذاب السعير ؟ وددتُ لو أنّ لى دمعاً أذرفهُ من فرط السآمة والحنق والألم !

— طالما شهدنا الخلائق تهبط علينا وقد أضناها التعب والوصب ، فنفق الحيوان على صدرنا ، ومات الانسان بين يدينا ، ووجد كل منهما عندنا ملجأً طبيعيًّا يتلقاها ويضمهما اليه . ونحن الجائعات الظامئات المتعبات على الدوام ، ليس لنا من يرثى لحالنا ويسعفنا . نحن التائقات الى التفلت من حالتنا الراهنة ، ليس لنا أن نمضى فى علوّ ما ونهبط فى مستقرّ غير هذا . واتعبى من هذا الوجود القاحل فى ديمومة السكوت والجمود !

— أو لا تتحركين وتنتقلين عند ما تطؤك سنابك الخيل وأخفاف البعير أقدام الانسان ، لدن مرور هاتيك القوافل التى ما فتئت تطوينا منذ أن كان الدهرُ وليداً ؟

— ليست هذه هى الحركة التى ننشد . إن شوقاً عميقاً فينا يتلهّف على حركة من نوع آخر

— كم من حركةٍ مفاجئة خبرتُ عند ما عصفت بى السموم فى النهار أو الحَرور فى الليل ! زعازع وأنواء انتزعتنى فى عنفٍ من مقرّى إلى مقرّ آخر ، فما كنتُ منتقلةً إلاّ من الرمضاء إلى الرمضاء ، حيث السعيرُ دائمٌ والأوارُ مقيم !

— وأنا تلقّفتنى العواصف غير مرة . فحطت بى يوماً عند ساحل البحر فامتزجتُ بالماء ورسبتُ فى القعر . وأغفلنى هناك زمناً الدهرُ الوسنان . ثم قذفت بى الأمواج على الشاطئ ، فتناولتنى الزوبعة الهوجاء ، وردّتنى إلى مستقرى فى هذه البطحاء !

— وأنا كم حدت بى الريح إلى حيث الينابيع تتفجّر والمياه تجرى ! إلى حيث الأرض كريمة والأشجار ظليلة ، وقد نوّرت الأزهار هنا وهناك وهنالك على صفحة الروض ، وتشابكت الرياحين بمثيلاتها من شذىّ النباتات فعبق الهواء بأريج العطور !..

— لا تذكرنَ الماء والعطر والظلال لرمالٍ شقية قضى عليها بالمحل والاضطرام والصدى ، لا ترهفن فينا أشواقاً تأبى التحقيق !

— أتوق إلى الذوبان فى سائلٍ ما ، ولو كان ذياك السائل القانى الذى رأيتنا أحياناً على جسد الانسان والحيوان ! ولكننا غير قابلات للجرح الذى يغسل محلنا بنجيع الدماء ، ولن نكون يوماً قمينات بابتسامة الحياة وعذوبة الحنان . قضى علينا بأن نكون دواماً فى حكم الموتى ، وقد حُرمنا نِعَماً يجنيها غيرنا فى جنةِ الأرض

— أنكون فى حكم الموتى ونحن نشتاق ونتعذّب ؟ ألا ليت كلّ قافلة عابرة تسير بى إلى حيث ينيخ الركبُ ! حيث الخيمة المضيافة والناس يضرمون النار ويأكلون ، وينهلون الماء ويرتوون ! وا حنينى إلى هناء المضارب ! وا حنينى إلى كيان قابل للرىّ والارتواء !

— لو كان لى أن أرجو الوصول يوماً إلى تلك الحالة الراغدة لأعانني الرجاء على الاحتمال ، وكان لى منه العزاء والسلوى ! ولكننا فى هذه البطاح الصمّاء البكماء ، إنما وُجدنا لنقطع كلّ صلةٍ بين الحياة والحياة !

— ويك ! ماذا تقولين ، نحن قاحلات جائعات ظامئات مشتاقات ، ولكننا وُجدنا لنكون صلة بين الحياة ولباب الحياة !

— أو لا ترين الفجر يتلألأ فى الأفق سنياً ؟ غبار دقيق من النور يتناثر حولى ، كأنه سحيق من الذهب والبلور . هذا يوم عيد

— لولا هذا اليوم وماميزه بين الأيام ، ما كانت تلك القوافل العديدة ، قوافل الحجاج التى نراها منذ قرون وقرون ذاهبة آئبة

— لقد شهدتُ القوافل ذاهبة آئبة منذ أن خرجتُ على الصحراء رملاً ، وتعرّفتُ قوافل العرب الرحّل وقوافل الغزاة والمحاربين والشعراء والعاشقين . وكم من حداء سمعتُ !

— تلك القوافل تعددت ألوفاً وألوف الألوف منذ أربعة عشر قرناً ، وتبدّل الغرض من ترحالها منذ أن انبثق من سويداء قلب الصحراء جحفل النصر العظيم . فصارت القوافل قوافل الذكرى والعبادة والسلام ، تقبلُ علينا فى عجاجة وردية من قصىّ الابعاد حيث يخيّل أن الآفاق تتحرك ، وتغادرنا فى عجاجة وردية لتتوارى وراء الآفاق التى تحنو على وديعتها الفريدة الغالية

— أعرف تلك الوديعة ، فقد ساقتنى إليها الريح مرة ! هناك مثوى ذاك الذى عرف كيف يلقى فى أرواح الشعوب روحاً حيّة خالدة

— فتى الصحراء ! فتى الصحراء الذى اصطفاه ربُّه ليحمل الكتاب . فهجر دياره ، وسلاحه كتاب فغزا به العالمين !

— الفاتح الذى لا يشبهه فاتح ! إنه لم يغزُ البلدان والأمصار وكفى ، بل غزا القلوب بسرّه ، وفتح النفوس بسحره ، يوم خروجه من الديار هو بدء تاريخ الهجرة . وها الناس على توالى القرون ، وقد هاموا بجاذبيته النورانيّة ، يهجرون ديارهم وخيراتهم ويقتحمون المفاوز والأخطار ليحجوا إلى البقعة الصغيرة العظيمة التى تجمّع عندها معنى الديار والأوطان ، وتركزت فيها ثقة اليقين وانبعث منها نور الايمان !

— سيد الغزاة والفاتحين ! إنه فتانا ، فتى الرمضاء وفتى الرمال ! إنه جاء بمعجزة المعجزات فأخرج الخصب الخصيب من ديار القحط والجدب !

— فتى الصحراء العجيب ، ذو العينين الدعجاوين حيث أودعت السماء نطفة الضياء ! إن ذكراه لممتزجة بذكرانا !

— نحن الرمال لم يكن وجودنا عبثاً كما زعمنا فى أجلنا المديد الأليم ! نحن الجامدات ، كنا مبعث الحركة والحياة ! نحن القاحلات ، كنا ومازلنا سبيل الهجرة الخصيبة

أشرقت الشمس — شمس اليوم الأول من العام الهجرىّ . من الرمضاء تتصاعد أشباح أثيرية تدور رشيقة فى نور النهار الجديد . وقد أصبحت أفواج الرمال القريبة والبعيدة كلها جوقة واحدة تنشد :

« نحن الرمال القاحلة ،
« لا خصب يوازى خصبنا !
« نحن الرمال الجامدة
« هل من حياةٍ كحياتنا ؟ »

« مى »

أمنيّة

للدكتور محمد عوض محمد

ألا من لنفسى والأمانى عزيزة ... بأرضٍ خلت من ظالمٍ ولئيم
وصومعة شيدت على رأس ربوةٍ ... مهبّ رياحٍ : زعزعٍ ونسيم .
تُطلّ على بحرٍ يعبّ عُبابه ... كصدرٍ لأسرار الزمان كتوم ؛
ومن خلفها يَنبوع ماءٍ مسلسلٍ ... كدُرٍّ على نحر الصخور نظيم
أطالع منها الكونَ سِفراً تزاحمت ... به الآىُ ، قد خطته كفُّ حكيم ،
وأقرأ منها الغيب سراً محجّباً ... بقلبٍ بصيرٍ بالخفىّ عليم .
وإن زارنى فيها الردى متخشّعاً ... فأهلاً به من زائرٍ ومقيم

محمد عوض

الهـــجرة

للأستاذ على عبد الرازق

حينما فكر أولو الأمر من أهل السبق فى الاسلام فى اختيار مبدأ للتاريخ الاسلامى كانت هنالك حوادث خطيرة ما زال ذكرها حياً فى أذهانهم ، يملؤها روعة وجلالاً

هنالك حادث الهجرة نفسها ، وهنالك قبل حادث الهجرة مولد النبى صلى الله عليه وسلم ، ومبعثه ، ويوم اعلانه بالدعوة ، ويوم بيعة العقبة ، وبيعة الرضوان

ثم هنالك بعد حادث الهجرة غزوات النبى صلى الله عليه وسلم ، ويوم الفتح — فتح مكة — وهنالك اليوم الذى أنزل الله تعالى فيه على عباده المؤمنين : « اليوم أكملت لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتى ورضيت لكم الاسلام ديناً » وغير ذلك أيضاً . كل أولئك وكثير مما لم نذكره ، قد كان ماثلاً أمام أولى الأمر من أهل السبق فى الاسلام يوم أرادوا أن يختاروا مبـــدأ للتاريخ الاسلامى ، فاختاروا من بين أولئك كله حادث الهجرة — هجرة النبى صلى الله عليـه وسلم وأصحابه من مكة إلى المدينة — وبذلك سجلوها ذكرى بين المسلمين متجددة ، وأرسلوها فيهم حديثاً مأثوراً وعبرة دائمة

ما نحسبهم فعلوا ذلك إلا وقد عرفوا لهذه الحادثة من القدر والخطر ما لم يعرفوا لغيرها من الحادثات التى عرفوا ، وإن كانت ذات قدر جليل وخطر عظيم

لقد يبدو غريباً أن يتفق الصدر الأول من بناة الاسلام وأهل السبق والفضـيلة فيه على أن ينظروا إلى الهجرة بذلك النظر ، وأن يعتبروها أهم الحوادث فى الاسلام وأبرزها وأبلغها فى نشأته أثراً

والذين يقرءون سيرة النبى صلى الله عليـه وسلم قد يدركون فى غير مشقة أن هذه الهجرة كانت فى الحق حدثاً ذا شأن عظيم وخطر ، فأما أن يبلغ من خطرها أن تكون هى الحادث يغطى على جميع الحادثات ، وتغلب ذكراه ذكراها ، ويرتفع اسمه فوق أسمائها ، فذلك ما قد يبدو غريباً يحتاج إلى شىء من البحث والنظر . بل لقد يبدو لبعض المتعسفين أمر هذه الهجرة وكأنه مظهر من مظاهر الهزيمة ، وكأنه عمل من أعمال اليأس والتسليم . وكذلك يظنه بعض الكفار ، وكذلك يسميه بعض كتابهم من الافرنج بالهرب والفرار

ولعل أولئك الذين يصفون هذه الهجرة بأشنع الصفات ، ويدعونها بشر الأسماء ، هم الذين سخرهم الله من حيث لا يشعرون ليكشفوا لنا عما أدرك السلف فى هذه الهجرة من روعة تتضاءل دونها كل روعة ، ومن عظمة لا تدانيها عظمة ، ومن حقائق وأسرار ما كنا لنهتدى إليها لولا أن أتاح الله لنا أولئك الحاسدين ينشرون فضل الهجرة كما تنشر النار طيب عرف العود

وفى الحق قد كانت هـذه الهجرة فى ظاهرها نهاية أسيفة لمعركة حامية طالت واشـتدت بين دعوة الله ودعوة الطاغوت ، ولقى المسلمون فيها بأساً عاصفاً وزلزلوا زلزالاً شديداً . ولعل كتـاب السيرة النبوية لم يستوفوا ما فى هذه الحرب المرة من تفاصيل ودقائق ، ولم يتوسعوا فى وصف ما تخللها من بأس وشدة ، ولعلنا لو استطعنا أن نحيط إحاطة شاملة بحقيقة هذه المعركة لوجدنا فيها قصة فريدة لمعركة كانت من أشد ما عرف التاريخ صراعاً بين الحق والباطل ، واصطداماً بين كلمة الله العليا وكلمة الكفر السفلى . لسنا نعرف من أمر هذه الحرب القاسـية إلا ذلك الذى يكرره كتاب السيرة ويتناقلونه من أحاديث الصحيفة ، وأحاديث التعذيب والايذاء ونحو ذلك ، ولـكن الذى يدرس طبيعة هذه الحرب ، ويحلل ظروف زمانها ومكانها ، ويستقصى ما ورد فى سياق الحديث عنها فى القرآن وفى السنة ، وفى كتب التاريخ لا يسعه إلا أن يعتقد اعتقاداً جازماً بأن هـذه المعركة قد كانت عنيفة إلى أقصى درجات العنف ، وقاسية إلى أبعد حدود القسوة ، وأنها كانت أكبر محنة ابتلى بها المسلمون فى صدر الاسلام ، وكانت نهايتها أن تشتت المسلمون ، وأخرجوا من ديارهم بغير حق إلا أن يقولوا : ربنا الله . وخرج صاحب الدعوة ورفيقه عليهما السلام ، كما خرج موسى كليم الله خائفاً يترقب (إذ هما فى الغار إذ يقول لصاحبه : لا تحزن إن الله معنا) وهكذا كانت الهجرة نهاية أسيفة لمعركة طالت واشتدت بين دعوة الله ودعوة الطاغوت

ثم كانت هـــذه الهجرة نفسها بداية سعيدة ناجحة لمعركة طالت واشتدت بين دعوة الله ودعوة الطاغوت ، وفيها عاد الله سبحانه على المسلمين بالنصر مؤزراً (فأنزل الله سكينته على رسوله وعلى المؤمنين ، وأنزل جنوداً لم تروها ، وجعل كلمة الذين كفروا السفلى ، وكلمةُ الله هى العليا والله عزيزٌ حكيم)

ليس يشق علينا أن يقولوا عن الهجرة إنها كانت هزيمة وكانت فراراً . ولئن كانت الهجرة هزيمة فلقد كان فى هذه الهزيمة النصر كل النصر والفوز كل الفوز . ولئن كانت الهجرة عملاً من أعمال اليأس والتسليم ، فلقد كان مع اليأس والتسليم أمل باسم ، قضى الله أن يتحقق ، وغلبة شاملة أراد الله أن تتم ؛ ولئن كانت الهجرة هرباً وفراراً ، فلقـد أعقبتها رجعة على الـكفر ساحقة ، وكرة كانت القاضية

وهل يجد المسلمون فى تاريخهم ، وهل يجد غير المسلمين فى تاريخهم ، وهل تجد البشرية كلها فى تاريخها حادثة غير هذه الهجرة تستحيل فيها الهزيمة نصراً ويرتد اليأس رجاء ، ويصير الفرار سلطاناً وتمـكيناً ؟ أم كان ذلك فضلاً من الله يختص به من يشاء ، وكان فضل الله عليك عظيما !

إذا كان المسـلمون قد استيأسوا يوم الهجرة وظنوا بالله الظنون ، فان المسلمين قد علموا يوم الهجرة أن يد الله الرحيمة ، قد امتدت من السماء فتلقت الاسلام تحفظه وتؤيده ، وأحاطت بالمسلمين فهدتهم إلى طريق الســعادة ، وكتبت لهم أن يكونوا هم الفائزين

لقـد علم المسلمون يوم الهجرة أن الله قد كتب لهذا الدين النصر الخالد ، ولن يخلف الله وعده ؛ ولقـد علم المسلمون يوم الهجرة أن الله وحده هو الذى يحمى هـذا الدين ويدافع عنه ، وأن الله وحده هو الذى يحفظ هذا الدين وينصره (وما النصر إلا من عند الله العزيز الحـكيم ليقطع طرفاً من الذين كفروا أو يكبتهم فينقلبوا خائبين ، ليس لك من الأمر شىء أو يتوب عليهم أو يعذبهم فإنهم ظالمون ، ولله ما فى السموات وما فى الأرض يغفر لمن يشاء ويعذب من يشاء والله غفور رحيم)

علي عبد الرازق

آية الهجـــرة

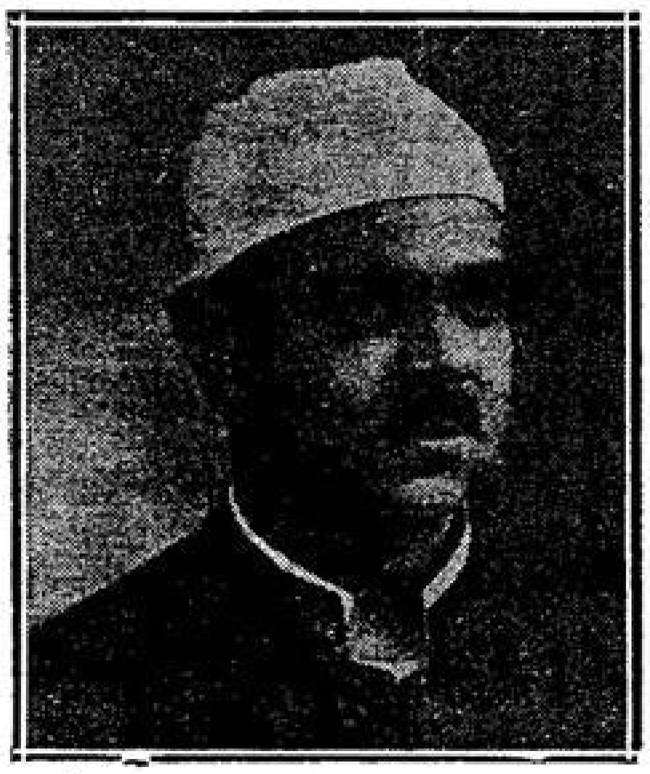
للأستاذ أمين الخولى

المدرس بكلية الآداب

« وجاهدوا فى الله حق جهـاده ، هو اجتباكم ، وسماكم المسلمين »

« ليهلك من هلك عن بينة ، ويحيى من حى عن بينة »

من أول خطبة له عليه السلام بعد الهجرة



تخيرت الأمم من عيون أيامها ، وأعلام أحداثها ، ماجعلته ميقاتاً تؤرخ به ؛ فقالت لعام كذا من وفاة الأسكندر ، أو غلبة دقيانوس ، أو ميــلاد المسيح ، أوماهومن ذاك . فلما تأذن الله أن يتخـذ الأسـلام ميقاتاً ، أبى له أن يكون مولد فلان ، أو مهلك فلان ، أو تملك مملك ، أو مصرع متوج ؛ فكل أولئك خفيف عند الله فى الميزان ؛ وكل أولئك لقد يهون على الزمان

يرحم الله ابن الخطاب ! لقد كره التاريخ بالوفاة ؛ نفر منه طبعه ، وعافته فيه قوة الحيــاة ، فتجلت بقلبه روح الاسلام مشرقة ؛ وسمت له ألمعية لبقة ؛ إذ آثر لذلك المبدأ يوم جلاد ، واختار له ذكرى جهاد ؛ يوم غالب فيه فرد جماعات ، وناضلت عزمة عزمات ؛ فبينا البـاطل فى قبائل يتنمر ، والموت على يد الأجلاد يرصد ويدبر ، تصدى لذلك كله « محمد » وحده يسخر ؛ « وجعلنا من بين أيديهم سداً ، ومن خلفهم ســداً ، فأغشيناهم فهم لايبصرون » . ماعز عليه أن يخلى الأهل والوطن ، ولاراعه أن يغترب لغير مستقر ، فغلب الحق وظفر ، وانتصر الايمـان وقهر ، فى قلة وروعة وتجرد

تلك آية الهجرة ، وذلك فى اختيارها سر الفكرة ، ألقاه الى

الدهر عمر ، وخلده حين حمله القمر ، فجعله فى التاريخ تقديراً ؛ وإنما بعثه لرسالة الاسلام تفسيراً ، يدور مع الأيام ، ويتجدد لكل عام . . . . أفيتساءل المسلمون بعد أين الطريق وكيف النجاة ؟ وتلك آية الهجرة أول الحياة فى تاريخهم وأول تاريخهم فى الحياة !

يا شرق . . . إن لك عند القمر معنى تاريخياً ، وإن لك فيه لرمزاً حيوياً ؛ فان يبد فى الغرب ناحلاً نضو أسفار ، فهو الطلعة يرتاد لك طريق الفخار ؛ وإن يتألق فى الشرق بدراً كاملاً ، فهو تاج مجدك ، ومثال جدك

الآن يزيح القمر سجف الغيب عن عام جديد ، فيطالع فى الشرق وجوهاً ناضرة ، إلى ربها ناظرة ، تحييها منه إشراقة باهرة ، وطلعة نيّرة ، تجل فيهم ما فهموا من معانى المجد والنبل فى آية الهجرة ، ووجوه . . . لاجرى القلم بوصفها ، قد غلبت على أمرها . . . لكنها لم تفقد رجاءها ، ولم تضعف أملها ، فلن تهى ما استمسكت بعروة الايمان « إن العزة لله ولرسوله وللمؤمنين » . . . . أولئك لهم من القمر فى إشفاقه الوديع نظرة راجية ، ولفتة حانية ، وإيماءة نافذة ، تثير ذكريات حافزة ، تلهمهم معانى المجد والنبل من آية الهجرة ؟!

أمين الخولى

على هامش السيرة

من معجزات الهجرة

للأستاذ على الطنطاوى

قال :

— هل لك يا سُراقةُ فى مائة من الابل ؟

— قال سُراقةُ : ما أحوجنى إلى عشرين ! فكيف السبيل إلى مائة ؟

— قال : تردّ على قريش صاحبها ، فقد خرج من مكة حين مكرت به قريش وأجمعت على قتله ، يهاجراً إلى المدينة ، فبثّت قريش عيونها فى سُبل مكة وشعابها ، وبعثت رسلها فنفضوا الصحراء نفضاً فما وقعوا له على أثر ، فعادوا إلى قريش بالاياس منه ، فأذّنت قريش فى العرب ، أن من ردّ علينا محمداً فله مائة من الابل ، وقد رأيت ركْبة ثلاثة مرّوا علىّ آنفاً ، وإنى لأراهم طلبة قريش . . . فهل لك أن نلحق بهم فتردّهم إلى مكة ونأخذ مائة الناقة فنقتسمها بيننا ؟

فرقص قلب سراقة فرحاً ، ولعب به الطمع ؛ وكان سراقة ابن مالك الجعشمى رجلاً متعفرتاً متشيطناً ، فعقد النية على أن يستأثر وحده بالغنيمة حتى تكون خالصة له ، فقال لصاحبه :

— ما هؤلاء من تريد ، هؤلاء بنو فلان ينشدون ضالّة لهم

فصدّق الرجل وانصرف ، وذهب سراقة فجلس فى ندِىّ قومه كما كان يجلس كل عشيّة فما اطمأن به مجلس ، وما وعى من أحاديث القوم شيئاً ، وإنما كان يخيَّلُ إليه أنه يرى قِطاراً طويلاً من الابل يمرّ أمامه ، ويدور من حوله ، فيخفق لمرآه قلبه ، وتتحلّب أشداقه ... ثم طمى به الطمع ، فبرح النادى إلى بيته ، يلوص بعينيه آفاق المستقبل ، ويقلّب أوجه الممكن ويفكر فى مائة الناقة أيملكها حتى تكون طوع أمره يصرّفها كما يشاء فتلد ، وتتكاثر فينحر منها ، ويطعم الجائع ، ويقرى الضيف ، ويرفد الوافد فيسير ذكره فى العرب ، وتنتجعه الشعراء ، وتمشى بمدائحه الركبان ؟ أم هو لا ينالها ، ولا يفيد من سفره إلا لذعَ الشمس ، وبَرْح العطش ، وطول التعب ؟ . . .

وامتد به التفكير حتى ما يكاد يخرج منه ، ولا يكاد يستقر على الرأى لحظة حتى ينتقل إلى غيره : لم لا أذهب ؟ إنى سأجدهم فأردّهم على قريش . . ولكن ألم تعجز رسل قريش عن أن تهتدى اليهم ؟ فكيف أجدهم أنا ؟ . . . بل سأجدهم ، إنى سالك كل طريق تؤدى إلى المدينة . . . ولكن ياللسخف ! ألم تسلك رسل قريش هذه الطرق كلها ؟ . . .

ولما أضناه التردد أزمع أن يستفتى الحظ ، ويهتدى بالصادفة — فأخرج أزلامه فاستقسم بها ، وحاول أن يشتفّ الغيب من خلالها : إن خرج الزلم الذى أكره « لا يضره » لم تكن النياق لى . وإن خرج الذى أحب « يضرّه » كانت لى ، إن الحكم للأزلام . . .

وضرب بيده فخرج الزلم الذى يكره ، فتألم واشتد ذلك عليه ، لأنه إنما عمد إلى الأزلام ليستمد منها العزم على الذهاب لا الرغبة فى القعود ، ثم قال :

إنها أول مرّة ، وهى للشيطان ! وإنى ضارب الثانية ، إن الثانيـة لآلهتنا ، وضرب الثانية فخرج الزلم الذى يكره . فقال لنفسه : مالى ؟ وهل يقنع امرؤ بمرتين ؟ إن المعوّل على الثالثة . وضرب الثالثة فخرج الزلم الذى يكره . . . فتصبب على جبينه العرق البارد ، فألقى الأزلام حنقاً ، وأمرغلامه أن يسرج فرسه ويقوده إلى بطن الوادى !

وتريث سراقة حتى إذا تصرّم الليل ، أسحر سالكاً طريق المدينة فسار فيه إلى الصباح فلم يقع من القوم على أثر . فعاد أدراجه يتبع طريق الساحل فلا يلق فيه أحداً ، حتى زالت الشمس ؛ وحميت الظهيرة ، وتسعرت الأرض ، وأحرق جوفه العطش ، وكان يهزُّه الطمع فيعدو فرسه عدواً شديداً ، حتى يرى الآكام هي التي تسير عن يمينه وشماله ، يأخذ بعضها بسفوح بعض ... ثم يدركه القنوط فيدع الفرس يمشي متباطئاً متخاذلاً ... حتى إذا بلغ منه التعب والعطش والجوع واليأس نظر فاذا عند الغار من جبل ثور محمد وصاحبه ... فصبّت القوّة في عضلاته ، وعادت اليه الحمية والنشاط ، فصاح في الفرس ، فانطلق نحو الغار كالسهم المرسل ؟

***

قال أبو بكر رضي الله عنه :

... فقلت : هذا الطلب قد لحقنا يارسول الله وبكيت

فقال : ما يبكيك ؟

قلت : ما والله على نفسي أبكي ، ولكن أبكي عليك

فدعا عليه رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وقال : اللهم اكفناه بما شئت ، فساخت فرسه في الأرض إلى بطنها ...

فلما رأى سراقة ما رأى ، وثب عن الفرس ، وقد طار الخوف بلبه ، وأبرأه الفزع من داء الطمع ، وصاح :

— يا محمد ! قد علمت أن هذا عملك ، فادع الله أن ينجيني مما أنا فيه ، فوالله لأعمين على من ورائي من الطلب . فدعا له رسول الله صلى الله عليه وسلم . فأنقذه الله ... وكان فكان من قوله له :

— كيف بك يا سراقة إذا لبست سوارى كسرى ؟

***

ورجع سراقة ، وقد اجتمعت عليه منذ اليوم المتناقضات من الأفكار والعواطف ، وهاج نفسه الطمع والخوف ، والأمل واليأس ، فجعل يقهقه في هذه البادية ، ويصرخ كمن به جنة ، ولم لا يجنّ ؟ وقد كان يأمل أن ينال الغنى ففاته ما كان يأمل ، وقد فتحت فاها لتبلعه الأرض فنجا ، ولم يصدر بعد هذا كله إلا بوعد دونه خرط القتاد ، وخرق النار ، وخوض البحار ...

— ماذا ؟ أيعدني محمد سوارى كسرى ، كسرى شاهنشاه ملك الملوك ... وهو يقطع الصحراء هارباً من قومه ، مختفياً في غار — ليس معه إلا رجل واحد — أيبتلع هذا الغار ملك كسرى وجبروته وجلاله ؟ أتنتصر هذه الصحراء على ملك كسرى وجنانه وأنهاره ؟ أيغلب هذان المهاجران كسرى على خزائنه وجنوده وبلاده ؟ ولو أن العرب اجتمعت كلها ، ورمت عن قوس واحدة ، ما نالت من كسرى منالاً ، على أنها لن تجتمع العرب قط ، ومن ذا الذي يجمع مضر بن نزار وقحطان ... وبكراً وتغلب ... وعبساً وذبيان ... وأين يذهب ما بينها من دماء ؟ ...

أما إن قريشاً كانت أدرى بصاحبها حين قالت عنه ما قالت فما أراه يعجبه أن ينجو من قريش ، ويفلت من أذاها حتى يكون له ملك كسرى .... إنه والله ما يريد إلا أن يتركنا « نحن أيضاً » مجانين !

وانطلق يقهقه ويصرخ :

ويحٌ لك يا سراقة ! ستلبس سوارى كسرى ... كسرى شاهنشاه ملك الملوك

والفرس ينفر من صراخه ، فيطير على وجهه حتى اختفى وراء الآكام ...

***

ومرّت السنون

وكان يوم صائف متوقد ، ففرّ سراقة من حرّه إلى حائط له ، فما استقر فيه حتى سمع منادياً ينادي :

ـ يا سراقة بن مالك الجُعْشُمي .... يا سراقة ....

فصاح : أن لبيك ، وانطلق يؤم الصوت ، فاذا رسول عمر يدعوه أن أجب أمير المؤمنين

وإذا الشمس بين يدي عمر تأخذ الأبصار ببريقها ولمعانها ، وإذا بين يديه تاج كسرى ومِنْطَقَته ...

قال عمر :

هلم ياسراقة ، أتذكر خبر الغار ، وسوارى كسرى شاهنشاه ملك الملوك ؟ ...

ـ قال : نعم

ـ قال . قد أذهب الله بالاسلام ملك كسرى ، فلا كسرى بعد اليوم ... هات يديك

فألبسه السوارين ، وقال ارفعهما فقل :

ـ الله أكبر ! الحمد لله الذي سلبهما كسرى بن هرمز ، وألبسهما سراقة بن مالك ، أعرابياً من بني مدلج[1]

***

(١) انظر النص التاريخي لحديث سراقة في كتابي : (أبو بكر الصديق رضي الله عنه) صفحة ٨٣

يا سراقة لقد انتصر المهاجران على كسرى وقيصر، وكان لهما ملك الأرض! يا سراقة! لقد أضاء النور الذى انبثق من بطن مكة الدنيا جميعاً! يا سراقة! لقد ظفر الغار بالعراق والشام، وغلبت الصحراء العالم!

يا سراقة! لقد كان ملك كسرى وقيصر كبيراً قوياً، ولكن الله مع الذين آمنوا، والله أقوى . . . والله أكبر! ؟

علي الطنطاوى

عضو « المجمع الأدبى » بدمشق

مُحـــرم

للشاعر الفيلسوف جميل صدقى الزهاوى



يبشّر بالعام الجديد محرّمُ — وينعته كلٌّ بما هو يزعمُ
فيوليه من إطرائه مُتفئّلٌ — ويكثر من ذمٍّ له متشئّمٌ
ولا يعلم الإنسان ماذا به له — ومَنْ فيه قد يشقى ومن فيه ينعم
ومن ذا الذى فيه المنايا تغوله — ومن ذا الذى منهن ينجو ويسلم
جديدٌ، أجل، عامٌ جديدٌ تجدّ فى — لياليه أحداثٌ بها لست أعلم
فيفرح قلبٌ بالكآبة مثقلٌ — ويحزن قلب بالمسرّة مفعم
وربَّ سعيدٍ بالشقاء مهدّدٌ — وربَّ شقيٍّ بالسعادة يحلم
ونفرح بالأعوام إمّا تصرّمت — على أنها من عمرنا تتصرّم
وددت لو أن العام قال منبّئاً — وماذا يقول العام والعام أبكم؟

***

وللغرب أعوامٌ وللشرق مثلها — ولكنما الأعوام فى الشرق تُسئم
وفى الغرب أفراحٌ وفى الشرق غمّةٌ — وما الأرض إلا جنّة وجهنّم
شقيقان هذا ليل أبنائه بهم — مضىءٌ وهذا يوم أهليه مظلم
وتختلف الأخلاق إلا أقلّها — ويختلف التفكير والعرق والدّم
بلى اختلفا فالغرب منصرف القوى — إلى فعله والشرق بالقول مغرم
ونحن تثبّطنا، وهم قد تعجّلوا — ونحن تأخّرنا، وهم قد تقدموا
وما كان مجدٌ كان يبنيه أهله — كمجدٍ بأيدى أهله يتهدّم

***

ومن لى بعام لا يشابه غيره — أرى فيه أظفار البغاة تقلّم
وأبخل أرضٍ بالرجولة بقعةٌ — يضام الفتى فيها ولا يتبرّم
إذا أنت لم تألم من الضغط غاضباً — فمن أى شىء فى حياتك تألم؟
أدير عيونى فى الوجوه فلا أرى — سوى الذل مقروءا ولا أتوسم
ليحزننى أن العنادل آثرت — صموتاً وأن الزهر لا يتبسّم
لقد صوّح الزهر الذى كان باسما — ولم يبق للصيداح ذاك الترنّم
يريدون ألا يشكو الحزن ثاكل — وألا يئنّ المثخن المتألم
من الناس آلافٌ يعضّهم الطوى — وفى كل ألفٍ واحدٌ يتنعّم
إذا عجز المكروب عن شرح ما به — فعلّ دموع العين عنه تترجم
أمن قام يشكو بثّه فهو مزعجٌ — ومَن قال يبغى حقه فهو مجرم!
وإنى لا أدرى وإن كنت دارياً — أقومى تعاموا أم عن الحق قد عموا
بنى وطنى لا تسكتوا عن حقوقكم — أليس لكم منكم فمٌ يتكلم
لكم ثروة فى الأرض أتعابها لكم — وأرباحها للغرب نهبٌ مقسّم
ولا خير فى بدء الفتى بجليلةٍ — إذا كان عن عجز له لا يتمّم
ولا فخر إلا للذى هو ماجدٌ — ولا مجد إلا للذى يتقحّم
وما الحرّ إلا من إذا ضيم لم يلن — وإن قال حقاً فهو لا يتلعثم
ويا رُبَّ فردٍ قد أتى فى جهاده — بما لم يكن يأتى الخميس العرمرم
وما بال أبناء العروبة أصبحت — على الذل أشتاتاً تشبّ وتهرم
وما بال أبناء العروبة سلمت — وقد كان عهدى أنها لا تسلّم
لآلام قومى الصّيد نفسى تألمت — لكِ الويل يا نفسى التى تتألم
وما خفقان القلب ما أنت سامعٌ — ولكنه آمال قومٍ تحطّم

(بغداد) جميل صدقى الزهاوى

الرجولة فى الاسلام

للأستاذ أحمد أمين



لعل من أهم الفروق التى تميز المسلمين فى أول أمرهم وفجر حياتهم عن المسلمين اليوم ، « خلق الرجولة » فقد غنى العصر الأول بمن كانوا هامة الشرف ، وغرة المجد ، وعنوان الرجولة

تتجلى هذه الرجولة فى « محمد » إذ يقول :

« والله لو وضعوا الشمس فى يمينى والقمر فى يسارى على أن أترك هذا الأمر حتى يظهره الله أو أهلك فيه ما تركته » . كما تتجلى فى أعماله فى أدوار حياته ، فحياته كلها سلسلة من مظاهر الرجولة الحقة ، والبطولة الفذة ، إيمان لا تزعزعه الشدائد ، وصبر على المكاره ، وعمل دائب فى نصرة الحق ، وهيام بمعالى الأمور ، وترفع عن سفسافها . حتى إذا قبضه الله إليه لم يترك ثروة كما يفعل ذوو السلطان ، ولم يخلف أعراضاً زائلة كما يخلف الملوك والأمراء . إنما خلف مبادئ خالدة على الدهر ، كما خلف رجالاً يرعونها وينشرونها ، ويجاهدون بأموالهم وأنفسهم من أجلها

وتاريخ الصحابة ومن بعدهم مملوء بأمثلة الرجولة ، فأقوى ميزات « عمر » أنه كان « رجلاً » لا يراعى فى الحق كبيراً ، ولا يمالئ عظيماً أو أميراً . يقول فى إحدى خطبه : « أيها الناس انه والله ما فيكم أحد أقوى عندى من الضعيف حتى آخذ الحق له ، ولا أضعف عندى من القوى حتى آخذ الحق منه »

وينطق بالجمل فى وصف الرجولة فتجرى مجرى الأمثال كأن يقول : « يعجبنى الرجل إذا سيم خطة ضيم أن يقول : « لا » بملء فيه » — ويضع البرامج لتعليم الرجولة فيقول :

« علموا أولادكم العوم والرماية ، ومروهم فليثبوا على الخيل وثبا ، ورووهم ما يجمل من الشعر » . ويضع الخطط لتربين الولاة على الرجولة فيكتب إليهم . « اجعلوا الناس فى الحق سواء ، قريبهم كبعيدهم ، وبعيدهم كقريبهم ، إياكم والرشا والحكم بالهوى ، وأن تأخذوا الناس عند الغضب » ، ويعلمهم كيف يسوسون الناس ويربونهم على الرجولة فيقول : « ألا لا تضربوا المسلمين فتذلوهم ، ولا تحرموهم فتفتنوهم ، ولا تمنعوهم حقوقهم فتكفروهم ولا تنزلوهم الغياض فتضيعوهم »

من أجل هذا كله كان هذا العصر مظهراً للرجولة فى جميع نواحى الحياة ، تقرأ تاريخ المسلمين فى صدر حياتهم فيملؤك روعة ، وتعجب كيف كان هؤلاء البدو وهم لم يتخرجوا فى مدارس علمية ، ولم يتلقوا نظريات سياسية ، حكاماً وقادة كخريجى العلم ووليدى السياسة — إنما هى الرجولة التى بثها فيهم دينهم وعظماؤهم هى التى سمت بهم وجعلتهم يفتحون أرقى الأمم مدنية وأعظمها حضارة ، ثم هم لا يفتحون فتحاً حربياً يعتمد على القوة البدنية وكفى ، إنما يفتحون فتحاً مدنياً إدارياً منظماً ، يعلمون به دارسى العدل كيف يكون العدل ، ويعلمون علماء الادارة كيف تكون الادارة ، ويلقون بعملهم درساً على العالم أن قوة الخلق فوق مظاهر العلم ، وقوة الاعتقاد فى الحق فوق النظريات الفلسفية والمذاهب العلمية ، وأن الأمم لا تقاس بفلاسفتها بمقدار ما تقاس برجولتها

هل سمعت عدلاً خيراً من أن يضرب ابن لعمرو بن العاص — وهو والى مصر — رجلاً مصرياً فيستحضره عمر بن الخطاب وابنه ، ثم يأمر المصرى أن يضرب من ضربه وأن يضع السوط على صلعة عمرو ، ثم يقول له : « مذ كم تعبدتم الناس وقد ولدتهم أمهم أحراراً » . أو هل سمعت عطفاً على الرعية ، وأخذ الولاة بالحزم كالذى روى أن معاوية قدم من الشام على عمر ، فضرب عمر بيده على عضده فتكشف له عن عضد بض ناعم . فقال له عمر : « هذا والله لتشاغلك بالحمامات ، وذوو الحاجات تقطع أنفسهم حسرات على بابك ! »

أو هل سمعت قولاً فى العدل يحققه العمل كالذى يقوله عمر « إذا كنت فى منزلة تسعنى وتعجز الناس ، فوالله ما تلك لى بمنزلة حتى أكون أسوة للناس » — أو هل رأيت حزماً فى الادارة كالذى فعله فى مسح سواد العراق وترتيب الخراج ،

وتدوين الدواوين ، وفرض العطاء

حقاً لقد كان عمر فى كل ذلك رجلاً ، ولئن كان هناك رجال قد امتصوا رجولة غيرهم ، ولم يشاءوا أن يجعلوا رجالاً بجانبهم ، فلم يكن عمر من هذا الضرب ، إنما كان رجلاً يخلق بجانبه رجالاً ، فأبو عبيدة بن الجراح وسعد بن أبى وقاص والمثنى بن حارثة ، وكثير غيرهم كانوا رجالاً نفخ فيهم عمر من روحه كما نفخ فيهم الاسلام من روحه ، وأفسح لهم فى رجولتهم ، كما أفسح لنفسه فى رجولته

وكان أدبهم فى ذلك العصر صورة صحيحة لرجولتهم يتغنون فيه بأفعال البطولة ومظاهر الرجولة

وخير الشعر أشرفه رجالاً   وشر الشعر ما قال العبيد

يعتد الشاعر بنفسه ويسمو بها عن النعماء والبأساء فيقول :

قد عِشْتُ فى الناس أطواراً على طرُقٍ
شَتَّى وقاسيتُ فيها اللينَ والفَظَعا
كلاًّ بلوتُ ، فلا النعماء تُبْطِرُنى   ولا تخشّعتُ من لأوائها جَزَعا
لا يملأ الهوْلُ صدْرِى قبل موقعه   ولا أضيقُ به ذَرْعا إذا وَقعَا

ويعتز بشرفه وقوته وإبائه الضيم فيقول :

وكنت إذا قوم رمَوْنى رميتهم   فهل أنا فى ذا يالَ هَمْدَانَ ظَالِمُ
متى تجمع القلبَ الذّكِىّ وَصارماً
وَأنفاً حَمِيًّا تجتنبْكَ المَظَالِمُ

ويمدح رجل قوماً فيقول « انهم كالحجر الأخشن إن صادمته آذاك وإن تركته تركك »

ويقول أميرهم : « والله ما يسرنى أنى كُفيتُ أمر الدنيا كله قيل ولم أيها الأمير ، قال لأنى أكره عادة العجز » إلى كثير من أمثال ذلك

وعلى الجملة فأدبهم تام الرجولة ، قد شعت فيه الحياة ، وامتلأ بالقوة ، حتى اللاهى الماجن كأبى محجن الثقفى : كان يغازل ، وكان يشرب ، ولكن إذا جد الجد وعزم الأمر كان رجلاً يبيع نفسه لدينه ، ويبيع كل شىء لشرفه وشرف قومه

ونستعرض الغزل فى الجاهلية وصدر الاسلام ، فاذا هو غزل قوى لا مُيُوعة فيه ، ولا تخنث ، لا يذوب صبابة ، ولا يلتاع هياماً ، ولا يفقد الرجل فيه رجولته لحبه

وقلتُ لقلبى حين لجّ به الهوَى   وكلّفنى ما لاَ أطيقُ منَ الحُبِّ
ألا أيها القلبُ الذى قادَهُ الهوَى   أفِقْ لا أقرَّ اللهُ عَيْنَكَ مِنْ قلب

وما أنا بالنّكْسِ الدَّنِىِّ ولا الذى   إذا صَدَّ عَنّى ذو المَوَدَّةِ أحْرَبُ
وَلكننى إنْ دَامَ دُمتُ وَإنْ يكُنْ
لهُ مذْهَبٌ عَنِّى فَلِى عنهُ مَذْهَبُ

ولم يضن التاريخ على المسلمين من حين لآخر برجال لفتوا وجه الدهر ، وغيروا مجرى الحوادث ، ودفعوا عن قومهم الخطوب ، وأنزلوهم منزل العز والمنعة ، تضيق عن وصف أعمالهم الرسائل والكتب

ثم توالت الأحداث وتتابعت النوب ، تفل من شوكتهم ، وتفت فى رجولتهم حتى رأيناهم بذلوا الشرف للمال ، وقد كان آباؤهم يبذلون المال للشرف ، ولم ينظروا إلا إلى أنفسهم وذويهم ، وكان آباؤهم ينظرون إلى دينهم وأمتهم ، وتفرقوا شيعاً وأحزاباً يذيق بعضهم بأس بعض ، فكانوا حرباً على أنفسهم بعد أن كانوا جميعاً حرباً على عدوهم — ورضوا فى الفخر أن يقولوا « كان آباؤنا » مع أن شاعرهم يقول :

إذا أنت لم تحْمِ القديم بحادث
من المجد لم يَنْفَعْكَ ما كانَ مِنْ قبل

وناثرهم يقول : « لم يدرك الأول الشرف إلا بالفعل ، ولا يدركه الآخر إلا بما أدرك به الأول »

ورأينا خير ما فى الأمم حاضرها وخير ما فينا ماضينا

***

أريد بالرجولة صفة جامعة لكل صفات الشرف من اعتداد بالنفس واحترام لها ، وشعور عميق بأداء الواجب ، مهما كلفه من مصاعب ، وحماية لما فى ذمته من أسرة وأمة ودين ، وبذل الجهد فى ترقيتها ، والدفاع عنها ، والاعتزاز بها ، وإباء الضيم لنفسه ولها

وهى صفة يمكن تحققها مهما اختلفت وظيفة الانسان فى الحياة فالوزير الرجل من عد كرسيه تكليفاً لا تشريفاً ، ورآه

وسيلة للخدمة لا وسيلة للجاه ، أول ما يفكر فيه قومه ، وآخر ما يفكر فيه نفسه ، يظل فى كرسيه ما ظل محافظاً على حقوق أمته ، وأسهل شيء طلاقه يوم يشعر بتقصير فى واجبه ، أو يوم يرى أن غيره أقوى منه فى حمل العبء ، وأداء الواجب ، يجيد فهم مركزه من أمته ومركز أمته من العالم ، فيضع الأمور مواضعها ويرفض فى إباء أن يكون يوماً ما عونا للأجنبي عليها ، فاذا أريد على ذلك قال : « لا » بملء فيه ، فكانت « لا » منه خيراً من ألف « نعم » وكانت « لا » منه وساماً تدل على رجولته ، وكانت « لا » منه خير درس للناشئين يتعلمون منه الرجولة — يقتل المسائل بحثاً ودرساً ، ويعرف فيها موضع الصواب والخطأ ومقدار النفع والضرر ، ثم يقدم فى حزم على عمل ما رأى واعتقد لا يعبأ بتصفيق المصفقين ، ولا بذم القادحين ، إنما يعبأ بشيء واحد هو صوت ضميره ، ونداء شعوره

والعالم الرجل من أدى رسالته لقومه من طريق علمه ، يحتقر العناء يناله فى سبيل حقيقة يكتشفها أو نظرية يبتكرها ، ثم هو أمين على الحق لا يفرح بالجديد لجدته ، ولا يكره القديم لقدمه ، له صبر على الشك ، وغرام بالتفكير وبطء فى الجزم ، وصبر على الشدائد ، وازدراء بالاعلان عن النفس ، وتقديس للحقيقة ، صادفت هوى الناس أو أثارت سخطهم ، جلبت مالا أو أوقعت فى فقر ، يفضل قول الحق وإن أهين على قول الباطل وإن كرم

والصانع الرجل من بذل جهده فى صناعته ، فلم يشأ إلا أن يصل بصناعته إلى أرقى ما وصلت إليه فى العالم ، عشقها وهام بها حتى بلغ بها ذروتها ، يشعر بأنه وطنى فى صناعته كوطنية السياسى فى سياسته ، وأن أمته تخدم من طريق الصناعة كما تخدم من طريق السياسة ، وأن الصناعة لا تقل فى بناء المجد القومى عن غيرها من شؤون الدولة ، فهو لهذا يحسن فنه ، وهو لهذا يحسن سلوكه ، وهو لهذا يرفض ربحاً كثيراً مع الخداع ، ويقنع بربح معتدل مع الصدق ، وهو لهذا كله كان رجلاً

بل الرجولة تكون فى المعنويات كما تكون فى الماديات ، فالرأى العام الرجل هو الرأى العام اليقظ ، شديد التنبه لما يحيط به من مخاطر ، يعرف كيف يدفع عنه الأذى إذا نيل منه ، ويصد الشر إذا نزل به ، صحيح التقدير لأعمال الرجولة ، شديد الاحتقار للنذالة ، يظهر إعجابه للمحسن أيًّا ما كان فى أشكال تدعو إلى الإعجاب ، ويظهر ازدراءه للمسيء أيًّا ما كان فى أشكال تدعو إلى الإعجاب أيضاً ، ولا يكون الرأى العام رجلاً حتى تشيع فى أفراد الأمة الرجولة وتكثر فيهم البطولة — وفى الرجولة متسع للجميع ، فالزارع فى حقله قد يكون رجلاً ، والتلميذ فى مدرسته قد يكون رجلاً ، وكل ذى صناعة فى صناعته قد يكون رجلاً ، وليس يتطلب ذلك إلا الاعتزاز بالشرف وإباء المذلة

* * *

من لنا ببرنامج دقيق للرجولة كالبرنامج الذى يوضع للتعليم ، يبدأ يرعى الطفل فى بيته فيعلمه كيف يحافظ على الكلمة تصدر منه كما يحافظ على الصك يوقع عليه ، ويعلمه كيف يكون رجلاً فى ألعابه ، فيعدل بين أقرانه فى اللعب كما يحب أن يعدلوا معه ، ويلاعبهم بروح الرجولة من حب ومساواة ومرح فى صدق وإخلاص

ويسير مع التلميذ فى مدرسته ، فيعلمه كيف يحترم نفسه ، وكيف لا يفعل الخطأ وإن غفلت عنه أعين الرقباء ، ولا يغش فى الامتحان ولو تركه المعلم وحده مع كتبه ؛ وكيف يعطف على الضعفاء ويبذل لهم ما استطاع من معونة

ويتمشى مع الطالب فى جامعته فيعوّده الاعتزاز بنفسه والاعتزاز بجامعته والاعتزاز بأمته . ويبعثه على أن يفكر فى غرض شريف له فى الحياة يسعى لتحقيقه — حتى إذا ما أتم دراسته كان قاضياً رجلاً أو معلماً رجلاً ، أو سياسياً رجلاً ، وعلى الجملة انساناً رجلاً

ويتابع الأمة فيضع لها الأدب الذى يبعث قوة ، والأناشيد والأغانى التى تملأ النفس أملاً . ويراقب فى شدة وحزم دور السينما والتمثيل والملاهى ، فلا يسمح بما يضعف النفس ويثلم الشرف ، ولا يسمح بما يحيى الشهوة ويميت العزيمة ، ويأخذ على أيدى الساسة والحكام ورجال الشرطة ، حتى لا يقسوا على الناس فيميتوهم ، ولا يرهبوهم فيذلوهم

من يبادلني فيأخذ كل برامج التعليم ، وكل ميزانية الدولة ويسلمني برنامجاً للرجولة وميزانية لتنفيذه ليس غير

ولى كبد مقروحة ، من يبيعني بها كبداً ليست بذات قروح ؟

أحمد أمين

حقيقة المسلم

للأستاذ مصطفى صادق الرافعي



لا يعرف التاريخ غير محمد (صلى الله عليه وسلم) رجلاً أفرغ اللهُ وجودَه في الوجود الانسانيّ كلّه ؛ كما تَنصبُّ المادةُ في المادة ، لتمتزج بها ، فتُحوّلها ، فتُحدثَ منها الجديد ، فاذا الانسانيةُ تتحوّل به وتنمو ، وإذا هو (صلى الله عليه وسلم) وجودٌ سارٍ فيها فما تبرح الانسانيّةُ تنمو به وتتحوّل

كان المعنى الآدميُّ في هذه الانسانيةِ كأنما وَهَنَ من طول الدهر عليه يتحيّفه ويمحوه ويتعاوره بالشر والمنكر ؛ فابتعث اللهُ تاريخَ العقل بآدمَ جديدٍ بدأت به الدنيا في تطوُّرها الأعلى من حيث يرتفع الانسانُ على ذاته ، كما بدأتْ من حيث وُجد الانسانُ في ذاته ؛ فكانت الانسانيةُ دهرَها بين اثنين : أحدهما فَتحَ لها طريقَ المجيء من الجنة ، والثاني فَتحَ لها طريق العودة إليها . كان في آدم سرُّ وجود الانسانية ، وكان في محمدٍ سرُّ كمالها

* * *

ولهذا سُمّيَ الدينُ (بالاسلام) ؛ لأنه إسلام النفسِ إلى واجبها ، أيْ إلى الحقيقة من الحياةِ الاجتماعية ؛ كأن المسلم ينكر ذاتَه فيُسلمها إلى الانسانية تُصرّفها وتمتلها في كمالها ومعاليها ؛ فلا حظَّ له هو من نفسه يُمسكها على شهواته ومنافعه ، ولكنْ للانسانية بها الحظّ

وما الاسلام في جملته إلا هذا المبدأ : مبدأ إنكار الذات و(إسلامُها) طائعةً على المَنشَط والمَكرَهِ لفروضها وواجباتها ؛ وكلما نكصت إلى منزعها الحيوانيّ ، أسلمها صاحبُها إلى وازعها الالـهيّ . وهو أبداً يَرُوضُها على هذه الحركة مادام حيًّا ؛ فينتزعها كلَّ يوم من أوهام دنياها ليضعها بين يَدَيْ حقيقتها الالـهيّة : يروضها على ذلك كل يوم وليلةٍ خمسَ مرّاتٍ مُسماةٍ في اللغة خَمْسَ صلوات ، لا يكون الاسلام إسلاماً بغيرها ؛ فلا غرو كانت الصلاةُ بهذا المعنى كما وصفها النبيُّ (صلى الله عليه وسلم) : هي عمادَ الدين

* * *

بين ساعاتٍ وساعات في كلِّ مطلع شمس من حياة المسلم صلاة ، أيْ إسلامُ النفس إلى الارادة الاجتماعية الشاملة(1) القائمةِ على الطاعة للفرض الالـهيّ ، وإنكارٌ لمعانيها الذاتيةِ الفانية التي هي مادة الشرّ في الأرض ، وإقرارُها لحظاتٍ في حيّز الخير المحض البعيدِ عن الدنيا وشهواتها وآثامها ومنكراتها . ومعنى ذلك كلّه تحقيقُ المسلم لوجود روحه ؛ إذ كانت أعمال الدنيا في جملتها طُرقاً تتشتّت فيها الأرواحُ وتتبعثر ، حتى تضلّ روح الأخ عن روح أخيه فتنكرها ولا تعرفها !

وهذا الوجود الروحيّ هو مبعثُ الحالة العقلية التي جاء الاسلامُ ليهديَ الانسانيةَ اليها ؛ حالةِ السلام الروحانيّ الذي يجعل حربَ الدنيا المهلكةِ حرباً في خارج النفس لا في داخلها ، ويجعل ثروةَ الانسان مقدَّرة بما يعامل اللهَ والانسانيةَ عليه ؛ فلا يكون ذهبُه وفضتُه ما كتبتْ عليه الدول « ضُربَ في مملكةِ كذا » ، ولكن ما يراه هو قد كُتب عليه « صُنعَ في مملكةِ نفسي » ؛ ومن ثمّ لا يكون وجودُه الاجتماعيُّ للأخذ حَسْبُ ، بل للعطاء أيضاً ؛ فان قانون المال هو الجمع ، أما قانونُ العمل فهو البذل

بالانصراف إلى الصلاة وجَمْعِ النيّةِ عليها ، يستشعر المسلمُ أنه حطم الحدودَ الأرضيةَ المحيطة بنفسه من الزمان والمكان ، وخرجَ منها إلى روحانيةٍ لا يُحدُّ فيها إلا بالله وحده

وبالقيام في الصلاة ، يحقّق المسلمُ لذاته معنى إفراغِ الفكرِ السامي على الجسم كلّه ليمتزجَ بجلال الكون ووقاره ، كأنه

(1) هذه هي حكمة صلاة الجماعة والحث عليها وكونها أفضل من غيرها وأن الثواب الأكبر فيها وحدها

كائن منتصبٌ مع الكائنات يسبِّح بحمده

وبالتولى شطْر القِبلةِ فى سَمْتها الذى لا يتغيّر على اختلاف أوضاع الأرض ، يَعرف المسلمُ حقيقةَ الرمزِ للمركز الثابت فى روحانية الحياة ؛ فيَحمل قلبُه معنى الاطمئنان والاستقرار على جاذبيّة الدنيا وقلَقِها

وبالركوع والسجودِ بين يَدَى الله ، يُشعِر المسلمُ نفسه معنى السُّمو والرِّفعةِ على كل ماعدا الخالق من وجود الكون

وبالجلسة فى الصلاة وقراءة التحيات الطيبات ، يكون المسلمُ جالساً فوق الدنيا يحمــد اللهَ ويُسلم على نبيّه وملائكته ويشهد ويدعو

وبالتسليم الذى يخرج به من الصلاة يُقبِل المسلمُ على الدنيا وأهلِها إقبالاً جديداً من جهتى السلام والرحمة

هى لحظاتٌ من الحياة كلَّ يوم فى غير أشياء هذه الدنيا ؛ لجمع الشهوات وتقييدها بين وقتٍ وآخر بسلاسلها وأغلالها من حركات الصلاة ، ولتمزيق الفناء خمسَ مراتٍ كلَّ يوم عن النفس ؛ فيرَى المسلمُ من ورائه حقيقةَ الخلود ، فتشعر الروحُ أنها تنمو وتتسع . هى خمسُ صلوات ، وهى كذلك خمسُ مراتٍ يفرغ فيها القلبُ مما امتلأ به من الدنيا ، فما أدقَّ وأبدعَ وأصدقَ قولَه صلى الله عليه وسلم : « جُعِلَتْ قُرّةُ عينى فى الصلاة » (١)

***

لم يكن الاسلامُ فى حقيقته إلا إبداعاً للصِّيغةِ العمليَّةِ التى تنتظم الانسانيةُ فيها ؛ ولهذا كانت آدابه كلُّها حرَساً على القلب المؤمن كأنها ملائكةٌ من المعانى ؛ وكان الاسلامُ بها عملاً إصلاحياً وقع به التطوُّرُ فى عالم الغريزة ، فنقله إلى عالم الخلق ، ثم ارتقى بالخُلُق إلى الحقّ ، ثم سما بالحقّ إلى الخير العام ؛ فهو سموٌّ فوق الحياة بثلاث طبقات ، وتدرُّجٌ إلى الكمال فى ثلاث منازل ، وابتعادٌ عن الأوهام بمسافة ثلاث حقائق

وبتلك الأعمال والآداب كانت الدنيا المسلمةُ التى أسسها النبى (صلى الله عليه وسلم) دنيا أسلمتْ طبيعتُها ، فأصبحت على ما أراد المسلمون لا ما أرادتْ هى ؛ وكأنها قائمة بنواميسَ من أهلها لا على أهلها ؛ وكان الظاهر أن الاسلام يغزو الأممَ بالعرب ويفتتحها ، ولكن الحقيقة العجيبة أن أقلياً من الدنيا كان يحارب سائرَ أقاليمِ الأرض بالطبيعة الأخلاقيةِ الجديدة لهذا الدين ؛ وكأن الله تعالى ألقى فى رمال الجزيرةِ روحَ البحر ، وبعثها بَعثَه الالٓهيَّ لأمره ، فكان النبى (صلى الله عليه وسلم) هو نقطةَ المدّ التى يفور البحر منها ، وكان المسلمون أمواجَه التى غُسِلتْ بها الدنيا . . .

لهذا سمع المسلمون الأوّلون كلامَ الله تعالى فى كتابه ، وكلامَ رسوله صلى الله عليه وسلم ، لا كما يسمعون القول ، ولكن كما يتلقون الحكم النافذ المقضيّ ؛ ولم يجدوا فيه البلاغةَ وحدها ، بل روعةَ أمرِ السماء فى بلاغة ؛ واتصلوا بنبيهم ، ثم بعضهم ببعض ، لا كما يتصل إنسان بانسان ، بل كما تتصل الأمواجُ بقوةِ المدّ ، ثم كما يَمُدُّ بعضها بعضاً فى قوةٍ واحدة

وحققوا فى كماله (صلى الله عليه وسلم) وجودَهم النفسيّ ؛ فكانوا من زخارفُ الحياة وباطلها فى موضع الحقيقة الذى يُرى فيه الشيءُ لا شيء

ورأوا فى إرادته (صلى الله عليه وسلم) النقطة الثابتة فيما يتضارب من خيالات النفس ، فكانوا أكبر علماءِ الأخلاق على الأرض ، لا من كتبٍ ولا علمٍ ولا فلسفة ، بل من قلب نبيهم وحده

وعرفوا به (صلى الله عليه وسلم) تمامَ الرجولة ؛ ومتى تمت هذه الرجولةُ تمامَها فى إنسان رجعتْ له الطفولةُ فى روحه ، وامتلك تلك الطبيعةَ التى لا يملكها إلا أعظمُ الفلاسفة والحكماء ، فأصبحَ كأنما يمشى فى الحياة الى الجنة بخطوات مُسدَّدةٍ لا تزيغ ولا تنحرف فلا شرَّ ولا رذيلة ، ودنياه هى الدنيا كلُّها بشمسها وقمرها ، يملكها وإن لم يملك منها شيئاً مادامت فى قلبه طبيعةُ السرور ، فلا فقرَ ولا غنى مما يشعر الناسُ بمعانيه ، بل كلُّ ما أمكن فهو غنيٌّ كامل ، إذلم تعُد القوةُ فى المادة تزيد بزيادتها وتنقص بنقصها ، بل القوةُ فى الروح التى تتصرف بطبيعة الوجود ، وتَدفع قُوَى الجسم بمثل دوافع الطفولةِ الناميــةِ المتغلِّبة ، حتى لتجعل من النور والهواءِ ما يُؤتَدَمُ به مع الخبز

(١) كان النبى (صلى الله عليه وسلم) يستبطئ الصلاة وقد جاء وقتها من شدة شوقه اليها فيقول : « أرحنا بها يا بلال » . ولا أفصح ولا أدق فى تصوير نفسيته (صلى الله عليه وسلم) وأشواق روحه العالية من قوله أرحنا بها . فهذا كمال الاتصال بينه وبين خالقه

القَـفار ، كما يؤتَدَمُ باللحم وأطايبِ الأطعمةِ(١)

وبذلك لاتتسلَّط ضرورةٌ على الجسم — كالجوع والفقر والألم ونحوها — إلا كان تَسلُّطها كأنه أمرٌ من قوةٍ في الوجود الى قوةٍ في هذا الجسم أن تَظْهرَ لتعملَ عملها المُعجز في إبطال هذه الضرورة . وهذا الجنس من الناس كالأزهار على أغصانها الخضْر ؛ لو قالت شيئاً لقالت : « إن ثروتى فى الحياة هى الحياةُ نفسها ، فليس لى فقرٌ ولا غنى ، بل طبيعةٌ أوْ لا طبيعة . . »

***

ولقد كان المسلم يُضْرب بالسيف فى سبيل الله ، فتَقَعُ ضَرَباتُ السيوف على جسمه فتُمَزِّقُه ؛ فما يُحسها إلا كأنها قُبَلُ أصدقاء من الملائكة يَلْقَوْنه ويعانقونه !

وكان يبْتَلى فى نفسه وماله ، فلا يشعر فى ذلك أنه المُرزَّأ المُبْتَلى يُعْرَفُ فيه الحزنُ والانكسار ، بل تَظهر فيه الانسانيةُ المنتصرةُ كما يَظهر التاريخُ الظافرُ فى بطله العظيم أُصيبَ فى كلِّ موضعٍ من جسمه بجراح ، فهى جراحٌ وتشويهٌ وألم ، وهى شهادةُ النصر !

ولم تكن أثقالُ المسلم من دنياه أثقالاً على نفسه ، بل كانت له أسباب قوةٍ وسمُو ؛ كالنَّسر المخلوق لطبقات الجوِّ العليا ، يحمل دائماً من أجل هذه الطبقات ثقل جناحيه العظيمين

وكانت الحقيقةُ التى جعلها النبيُّ (صلى الله عليه وسلم) مَثَلهم الأعلى ، وأقرَّها فى أنفسهم بجميع أخلاقه وأعماله — أن الفضائل كلَّها واجبةٌ على كلِّ مسلم لنفسه ، إذ أنها واجبة بكل مسلم على غيره ؛ فلا تكون فى الأمة إلا إرادة واحدة متعاونة ، يجعل المسلم وما هو إلا روحُ أمته تعمل به أعمالها هى لا أعماله وحدها ؛ المسلم إنسانٌ ممتدٌّ بمنافعه فى معناه الاجتماعىِّ حول أمته كلِّها ، لا إنسانٌ ضيِّقٌ مجتمعٌ حول نفسه بهذه المنافع ؛ وهو من غيره فى صدقِ المعاملة الاجتماعية كالتاجر من التاجر : تقول الأمانةُ لكليهما : «لاقيمةَ لميزانك إلا أن يصدِّقه ميزان أخيك..»

ولن يكون الاسلام صحيحاً تاماً حتى يجعلَ حاملَه مثلاً من نبيِّه فى أخلاق الله ؛ فما هو بشخص يضبط طبيعته ، يقهرها مرةً وتقهره مِراراً ؛ ولكن طبيعةٌ تضبط شخصها فهى قانون وجوده ؛ لا يضطرب من شئ ، وكيف يضطرب ومعه الاستقرار ؟ لا يخاف من شى ، وكيف يخاف ومعه الطمأنينة ؟ لا يخشى مخلوقاً ، وكيف يخشى ومعه الله ؟

أيها الأسد ، هل أنت بجملتك إلا فى طبيعةِ مخالبك وأنيابك . . . ؟ !

طنطا مصطفى صادق الرافعى

(١) عن ابن عباس قال : دخل رسول الله صلى الله عليه وسلم يوم فتح مكة على (أم هانىء) وكان جائعاً ، فقال لها : «أعندك طعام آكله ؟ » فقالت : « إن عندى لكسراً يابسة ، وإنى لأستحي أن أقدمها اليك » فقال : « هلميها ! » ، فكسرها فى ماء ، وجاءته بملح ، فقال : « ما من إدام ؟ » فقالت : « ما عندى إلا شىء من خل » فقال : « هلميه » فلما جاءت به صبه على طعامه ، فأكل منه ثم حمد الله وأثنى عليه ، ثم قال : « نعم الادام الخل يا أم هانىء ، لايقفر بيت فيه خل » ا . هـ .

الدفاع عن الاسلام

للأستاذ توفيق الحكيم



قرأت لتسع سنوات خلت قصة ڤولتير التمثيلية « محمد » ، فخجلت أن يكون كاتبها معدوداً من أصحاب الفكر الحر . فقد سب فيها النبي سباً قبيحاً عجبت له . وما أدركت له علة ، لكن عجبي لم يطل ، فقد رأيته يهديها الى البابا بنوا الرابع عشر بهذه العبارات : —

« فلتستغفر قداستك لعبد خاضع من أشد الناس إعجاباً بالفضيلة ، إذا تجرأ فقدم الى رئيس الديانة الحقيقية ما كتبه ضد مؤسس ديانة كاذبة بربرية . والى من غير وكيل رب السلام ، والحقيقة أستطيع أن أتوجه بنقدي قسوة نبي كاذب وأغلاطه ؟ فلتأذن لى قداستك فى أن أضع عند قدميك الكتاب ومؤلفه ؛ وأن أجرؤ على سؤالك الحماية والبركة . وإنى مع الاجلال العميق أجثو وأقبل قدميك القدسيتين » (ڤولتير ١٧ أغسطس ١٧٤٥)

وعلمت فى ذلك الحين أن روسو كان يتناول بالنقد أعمال ڤولتير التمثيلية ، فاطلعت على ما قال فى قصة « محمد » علني أجد ما يرد الحق الى نصابه ، فلم أر هذا المفكر الحر أيضاً يدفع عن النبي ما ألصق به كذباً ، وكأن الأمر لا يعنيه ، وكأن ما قيل فى النبي لا غبار عليه ولا حرج فيه ، ولم يتعرض للقصة إلا من حيث هى أدب وفن . ولقد قرأت بعد ذلك رد البابا بنوا على ڤولتير ، فألفيته رداً رقيقاً كيساً لا يشير بكلمة واحدة الى الدين ، وكله حديث في الأدب . فعظم عجبي لأمر ڤولتير ، وسألت نفسي طويلاً : أيستطيع عقل مثقف كعقل هذا الكاتب العظيم أن يعتقد ما يقول . دين تبعه آلاف الملايين من البشر على مدى الأجيال ، هو فى نظره حقاً دين كاذب ؟ ومبادىء إنسانية كالتى جاء بها الاسلام ، هى عنده حقاً مبادىء بربرية ؟ أم إنه التملق والزلفى والنفاق . وإن الزمن والتاريخ يضعان أحياناً أقنعة زائفة على نفوس تزعم أنها خلقت للدفاع عن حرية الفكر . . .

منذ ذلك اليوم وأنا أحس كأنى فجعت فى شىء عزيز لدى : الايمان بنزاهة الفكر الحر . ولقد كنت أحياناً ألتمس الأعذار لڤولتير ، وأزعم أنه قال ما قال لا عن مجاملة أو ملق ، بل عن عقيدة وحسن طوية استناداً على علم خاطىء بأخبار النبي ، ولكن كتابه الى البابا كان يتهمه اتهاماً صارخاً ، ويدع مجالاً للشك فى دخيلة أمره . إنى قرأت لڤولتير كتباً أخرى كانت تكشف عن آراء حرة حقاً فى مسائل الأديان ، وتنم عن روح واسعة الآفاق تكره التعصب الذميم ، فما باله عند ما عرض لذكر محمد والاسلام كتب شيئاً هو التعصب بعينه ، تعصبٌ لدينه ، ذهب فيه الى حد السجود وتقبيل الأقدام ، لا لرب العزة والخلق ، بل لبشر هو رئيس الكنيسة التى ما أرى أن ڤولتير كان فى ذات يوم من خدامها المخلصين . هى الأطماع التى كانت تدفع ڤولتير فيما أرى الى التمسح بأعتاب الملوك والباباوات ، ولقد يقدم ثمناً لذلك أفكاره الحرة أحياناً . منذ ذلك الحين وڤولتير عندى متهم ، ولن أبرئه أبداً ، ولن أعده أبداً من بين أولئك العظام الذين عاشوا بالفكر وحده وللفكر . وأحسب أن التاريخ العادل سوف يحكم عليه هذا الحكم ، فينتقم للحق بما افتراه على نبي كريم ظلماً وزوراً . على أن الذى يدعو الى الدهش أكثر من كل هذا أن الشرق والاسلام وقفا من الأمر موقف النائم الذى لا يعى ولا يشعر بما يحدث حوله ، فلم أر كاتباً من كتاب الاسلام قام فى ذلك الوقت يدفع عن دينه هذا الهراء الذى قال ڤولتير ، ويقذف فى وجه هذا الكاتب بالحقائق الباهرة القاطعة ، أو أن مؤلفاً وضع كتاباً يبرز فيه شخصية النبي الخيرة العظيمة واضحة جلية . لقد كان الشرق فى ليل هادىء بهيم لم تثر فيه حركة ڤولتير يومئذ ساكناً ، ولكن اليوم قد تغير الأمر ، ولاحت فى أفق الشرق خيوط الفجر ، وقام فى هذا القرن كتاب يمجدون

عقيدتهم وهم يعلمون أن فى ذلك تمجيداً للحق وللشرق ، فان المسألة ليست مسألة دين فقط ، إنما هى أيضاً مسألة جنس وقومية ؛ وإذ تقول أوربا : «الاسلام» فانما تعنى فى غالب الأحيان «الشرق». إن الحروب الصليبية فى حقيقتها لم تكن إلا حرب الغرب على الشرق ؛ وإن الفتح الاسلامى عندما بلغ فرنسا وهدد أوربا لم يكن فى الواقع إلا حرب الشرق على الغرب . هـذا المد والجزر بين الغرب والشرق يفهمه مفكرو الأوربيين تمام الفهم ، ويحسبون له الحساب ، ويعملون دائماً على أن تكون الغلبة لهم آخر الأمر ، أو أن يطيلوا على الأقل أمد غلبتهم إن كان لا بد من تبدل الحال ومن دوران الفلك طبقاً لناموس أعلى لا قبل لهم به .

فالدفاع عن شخصيتنا وعقيدتنا دفاع عن حياتنا ، وإن الكتابات التى توجه لهذا الغرض النبيل ينبغى أن يكون لها علينا حق المؤازرة والتعضـيد ؛ وإنى لست بناقد منقطع للنظر فى أعمال المؤلفين وتقدير قيم ما يكتبون ، ولـكنى أريد أن أشير إشارة سريعة الى ثلاثة أساليب مختلفة من أساليب الكتابة ، اتجهت فى العصر الحديث الى هذه الغاية ، كل فى دائرته

ففى الكتابة الدينية : « الرد على هانوتو » للأستاذ الامام محمد عبده ، فلقد نشر جابريل هانوتو الكاتب والوزير الفرنسى يوماً مقالة جاء فيها :

«قد أصبحنا اليوم إزاء الاسلام والمسألة الاسلامية ، اخترق المسلمون أبناء آسيا شمال القارة الأفريقيـــة بسرعة لا تجارى حاملين فى حقائبهم بعض بقايا تمدين البيزنطيين (يونان الشرق) ثم تراموا بها على أوربا ، ولـكنهم وجدوا فى نهاية انبعاثهم هذا مدنية يرجع أصلها الى آسـيا ، بل أقرب فى الصلة الى المدنية البيزنطية مما حملوه معهم ، ألا وهى المدنية الآرية المسيحية ، ولذلك اضطروا الى الوقوف عند الحد الذى اليه وصلوا ، وأكرهوا على الرجوع الى أفريقية حيث ثبت فيها أقدامهم أحقاباً متعاقبة »

ثم قال فى موضع آخر : « وقصر فريق منا بحثه وحكمه على ما شاهده من المناقضات والخلافات بين الدينين المسيحى والاسلامى ، فرأى فى الاسلام العدو الألد والخصم الأشد . قال المسيو كيمون فى كتابه «باتولوجيا الاسلام» : إن الديانة المحمدية جذام فشا بين الناس وأخذ يفتك فيهم فتكا ذريعاً ، بل هى مرض مريع وشلل عام ، وجنون ذهولى يبعث الانسان على الخمول والـكسل ، ولا يوقظه منهما إلا ليسفك الدماء ، ويدمن على معاقرة الخمور ، ويجمح فى القبائح . وما قبر محمد فى مكة إلا عمود كهربائى يبث الجنون فى رؤوس المسـلمين ويلجئهم الى الاتيان بمظاهر الهستريا (الصراع) العامة والذهول العقلى ، وتكرار لفظة الله الى ما لا نهاية ، والتعود على عادات تنقلب الى طبـاع أصلية كـكراهية لحم الخنزير ، والنبيذ ، والموسيقى ، والجنون الروحانى ، والليمانيا ، والماليخوليا ، وترتيب ما يستنبط من أفكار القسوة والفجور فى اللذات » الخ الخ

أمثال هذا الـكاتب يعتقدون أن المسلمين وحوش ضارية ، وحيوانات مفترسة « كالفهد والضبع ، كما يقول المسيو كيمون « وأن الواجب إبادة خمسهم » كما يقول أيضاً « والحكم على الباقين بالأشغال الشاقة ، وتدمير الـكعبة ، ووضع ضريح محمد فى متحف اللوفر » وهذا أيضاً قوله « . . وهو حل بسيط وفيه مصلحة للجنس البشرى .. أليس كذلك ؟ ولـكن قد برح عن خاطر الـكاتب أنه يوجد نحو ١٣٠ مليوناً مسلماً ، وأن من الجائز أن يهيب هؤلاء « المجانين » للدفاع عن أنفسهم والذود عن بيضة دينهم . . الخ الخ »

فما ظهر هذا الـكلام فى صحيفة المؤيد ، حتى قام الأستاذ الامام الشيخ محمد عبده لسـاعته مجرداً قلمه وكتب نحو أربع مقالات هى أقوى ما قرأت دفاعاً عن الاسلام ، وإظهاراً لحقيقة مبادئه الخافيـة على أغلب الأوربيين . وقد رد على هانوتو فيما أوردنا صائحاً : « ما هذا التمدين الآرى الذى كانت عليـه أوربا عند ما انتقص أطرافها المسلمون ؟ ؟

هل كانت تلك المدنية هى التسافك فى الدماء ، وإشهار الحرب بين الدين والعلم ، وبين عبادة الله وبين الاعتراف بالعقل ، نعم هذا هو الذى كان معروفاً عند الغربيين وقت ماظهر الاسلام

ماذا حمل الاسلام الى أوربا ، وما هى المدنيـة التى زحف عليهم بها فردوها ؟ زحف عليهم بما استفاد من صنائع الفرس وسكان آسـيا من الآريين ، زحف عليهم بعلوم أهل فارس والمصريين والرومانيين واليونانيين . نظف جميع ذلك ونقاه من الأدران والأوساخ التى تراكمت عليه بأيدى الرؤساء فى الأمم الغربية لذلك التاريخ ، وذهب به أبلج ناصعاً يبهر به أعين أولئك الغافلين المتسكعين الذين كانوا فى ظلمات الجهالة لا يدرون أين يذهبون

إنى أكيل لمسيو هانوتو إجمالاً بأجمال ، والتفصيل لا يجهله قومه ، وكثير من منصفيهم لم يستطع إلا الاعتراف به

إن أول شرارة ألهبت نفوس الغربيين فطارت بها الى المدنية الحاضرة كانت من تلك الشعلة الموقدة التى كان يسطع ضوؤها من بلاد الأندلس على ما جاورها ، وعمل رجال الدين المسيحى على إطفائها مدة قرون فما استطاعوا الى ذلك سبيلاً . واليوم يرعى أهل أوربا ما نبت فى أرضهم ، بعد ما سقيت بدماء أسلافهم المسفوكة بأيدى أهل دينهم فى سبيل مطاردة العلم والحرية وطوالع المدنية الحاضرة »

ثم رد الامام فى موضع آخر : « يجب على الباحث فى الاسلام أن يطلبه فى كتابه ، كما يجب عليه أن يطلب آثاره والاسلام إسلام ، والمسلمون مسلمون ، ولو استشم مسيو (كيمون) الذى استشهد هانوتو بكلامه ريح العلم لما استفرغ ذلك القذر من فيه ، ولاحاجة الى الكلام فيه ، فسخافة رأيه وقلة أدبه تكفيه

من أين أتى المسلمون وكيف دخل عليهم فى عقائدهم بالتشبيه ، وفى عوائدهم بالتمويه ؟ وممن تعلموا الافتراس ، وعمن أخذوا الضراء بالشهوات ؟ أنا أعلم ذلك وأهل العلم يعلمون ، والله من ورائهم محيط

اتبع المسلمون سنن من قبلهم شبراً بشبر ، وذراعاً بذراع ، حتى سقطوا فى مساقطهم ، وطارحوا الأوهام حتى انجروا الى مطارحهم ، وباءوا بما كان لهم وماعليهم

حدثت فى الدين بدع أكلت الفضائل وحصدت العقائل ، وترامت بالناس الى حيث يصب عليهم ما استفرغه (كيمون)

أما لو رجع المسلمون الى كتابهم واسترجعوا باتباعه مافقدوه من آدابهم لسلمت نفوسهم من العيب ، وطلبوا من أسباب السعادة ما هداهم الله اليه فى تنزيله على لسان نبيه ، ومهده لهم سلفهم وخطه لهم أهل الصلاح منهم ، واستجمعت لهم القوة ودبت فيهم روح الفتوة ، وكان ما يلقاه هانوتو وكيمون من دين صحيح شراً عليهما مما يخشونه من دين شوهته البدع

يرى كيمون أن يخلى وجه الأرض من الاسلام والمسلمين ، ويستحسن رأيه هانوتو لولا مايقف فى طريق ذلك كثرة عدد المسلمين ؛ وبئسما اختارا لسياسة بلدهما أن يظهرا ضعفهما ، ويعلنا خطل رأيهما وضعف حلمهما

أما فليعلم كل من يخدع نفسه بمثل حلمهما أن الاسلام إن طالت به غيبة ، فله أوبة ، وإن صدعته النوائب فله نوبة ، وقد يقول فيه المنصفون من الانكليز مثل (اسحق طيلر) وهو قس شهير ورئيس فى كنيسة :

« إنه يمتد فى أفريقيا ومعه تسير الفضائل حيث سار ، فالكرم والعفاف والنجدة من آثاره ، والشجاعة والاقدام من أنصاره »

***

بهذا القلم وهذه المعرفة وهذا الذهن ، وقف رجل الاسلام الحديث محمد عبده يذود عن بيضته أمام عدوان جهابذة الفكر والقلم من الأوربيين

أما فى الكتابة الأدبية ، فأذكر « على هامش السيرة » للدكتور طه حسين ، ففى هذا الكتاب دفاع عن الاسلام كما يستطيع الأدب البحت أن يدافع . فهو لا يسلك الطريق المستقيم فى الكلام عن الاسلام ، ولا يلجأ الى التدليل العقلى ، إنما يخلق جواً شعرياً يحبب الى النفس سيرة النبى وبيئته ؛ وقد عمد الدكتور طه حسين الى الأساطير ينسج منها هذا الجو الأدبى الجميل ، وتلك وسيلة الأدب والفن ، ومن ذا يقرأ هذا الوصف لبلاد النبى ولا تأخذه روعته ؟ :

(هنالك دعت « آمنة » اليها من حضرها من نساء بنى هاشم ، فأسرعن اليها وقضين معها ليلة لا كالليالى ، أنكرن فيها كل شىء وأعجبن فيها بكل شىء ، أنكرن حتى أنفسهن ، فقد رأين مالم يرأحد ، وسمعن مالم يسمع أحد ، وأحسسن مالم يحس أحد . ولم تكن آمنة أقلهن إنكاراً وإكباراً وإعجاباً — فقد كانت ترى وهى يقظة غير نائمة أن نوراً ينبعث منها فيملأ الأرض من حولها ، ويزيل الحجب عن عينيها ، وكانت تنظر فترى قصور بصرى فى أطراف الشام ، وكانت تنظر فترى أعناق الابل تردى فى أقصى الصحراء ، وكانت لاتتحدث الى من حولها بما ترى مخافة أن ينكرن ما تقول ، وأن يظنن بها الظنون ، وكانت هذه من صاحباتها لاتمد طرفها الى شىء حتى تراه نوراً كله ، لاظلمة فيه وإنما هو مشرق مضىء ، أو هو الاشراق الخالص ،

وكانت هذه الأخرى من صاحبيّاتها تنظر ، فاذا نجوم السماء تدنو من الأرض وتمد اليها أشعة قوية نقية باهرة ساحرة ، وإنها لتدنو وتدنو حتى يخيل الى الرائية أنها توشك أن تمسها وتقع عليها)

لقد دافع طه حسين عن الاسلام فى كتابه « على هامش السيرة » وان كان لم يقصد الى ذلك . فان الأدب الصرف والفن الصرف لا يقصدان أحياناً الى شىء ، ولكن فى مجرد صوتيهما أبلغ الكلام

أما فى الكتابة العلمية فها هو ذا كتاب « حياة محمد » للدكتور محمد حسين هيكل بك . ولو انى أعتقد أن أسلوب الدكتور هيكل فى « حياة محمد » يدخل أيضاً فى منطقة الكتابة الأدبية ، فان هذا الكتاب يعتبر فى نظرى من كتب « التراجم والسير » التى يضعها الكتاب الأدباء ، لا من البحوث العلمية التى يؤلفها المؤرخون العلماء ويعنون فيها باضافة شىء جديد الى العلم المعروف ، أو استكشاف وثيقة من الوثائق التحريرية أو الآدمية ، أو تحقيق مصدر من المصادر . على أن كتاب هيكل هو بلا نزاع أول سيرة نبوية خليقة أن تمثل تطور العقلية الاسلامية فى هذا العصر الحديث

وما أشق انتظارنا هذه الأجيال الطويلة لهذه السيرة الحديثة نضعها الى جانب سيرة ابن هشام والسيرة الحلبية وطبقات ابن سعد وغيرها من السير القديمة حتى يستطيع عصرنا أن يجهر بأنه فعل شيئاً من أجل الاسلام

ولو ان الأستاذ الشيخ محمد عبده حىّ اليوم لاستقبل هذا الكتاب بمثل ما استقبله به الأستاذ الشيخ المراغى ، فرحاً بهذا القلم الجديد ينهض لخدمة الحق والاسلام

ولقد ذكرت هذه الكتب وهذه الأساليب الثلاثة بالذات لما رأيته فيها من نظرة جديدة الى محمد والاسلام . نظرة ملؤها الاكبار الصادر عن فكر حر لا عن تعصب أعمى . ان الناس لم تعد تعنى بتلك الكتب المفعمة بالثناء الأجوف والألقاب الطويلة يحاط بها اسم النبى ، وهو فى عظمته أجل من أن يحتاج اليها . انما تريد الناس اليوم حقيقة مجردة ناصعة هى فى تجردها أجمل وأسمى وأبلغ فى النفوذ الى القلوب ، وهذا ما صنع هيكل بك فى كتابه « حياة محمد » على نحو خليق بالثناء ، فلقد أسقط من حياة النبى تلك المعجزات التى لا تغنى من الحق شيئاً ما دمنا فى مجال التدليل العقلى ، وأظهر شخصية النبى عظيمة فى بشريتها السامية ، وأبان عن غرض النبى فى الدعوة الى دين جوهره اقتناع النفس بالحقيقة العليا . ان هذه النظرة الجديدة فيها إجلال للنبوة . وان أولئك السفهاء الذين كانوا يطلبون الى الأنبياء أن يثبتوا نبوتهم بالمعجزات قد أثموا فى حق الفكر البشرى قبل أن يأثموا فى حق الدين

ان المعجزة : أى الاتيان بعمل خارق للمعتاد لا يدل على شىء ولا يثبت نبوة ولا يدحضها . فان من الكهان أو بسطاء الناس من يملكون أحياناً تلك القوى الخارقة فى أجسامهم أو عقولهم أو أرواحهم دون أن يكونوا من أجل ذلك أنبياء . ان النبى ليس فى حاجة الى معجزة كى يكون نبياً . انما النبى من حُمّل رسالة علوية لا ينصرف عن الحياة حتى يؤديها ، ومن فضل محمد أنه لم يشأ أن يقنع الناس بغير ذلك ، فقد بلغهم رسالته واعتمد فى اثباتها على العقل المجرد

ولقد جاء فى كتاب هيكل بك : « لما جهد المسلمون عطشاً أثناء مسيرة جيش العسرة الى غزوة تبوك ثم أمطرتهم السماء ذهب بعضهم اليه (الى النبىّ) يقول إنها معجزة ، فكان جوابه : (انما هى سحابة مارة) ؛ ولما كسفت الشمس يوم اختار الله ابنه ابرهيم الى جواره قال الناس : (ان هذا الكسوف معجزة) فكان جوابه : « ان الشمس والقمر آيتان من آيات الله لا تخسفان لموت أحد ولا لحياته » . هذا جواب محمد الذى قيل إنه نبى كاذب ! ! ! فهل يمكن أن يكون هذا جواب نبى كاذب ؟ ؟

ان فى كتاب هيكل صفحات تصلح رداً بليغاً على ڤولتير . ان محمداً هو أعظم من فهم حقيقة النبوة ، ووعى معنى الحقيقة العليا ، وأدرك أن أكبر معجزة فى هذا الكون هى انه لا يوجد فى الكون معجزات ، وأن كل شىء يسير طبقاً لنظام دقيق . واذا قيل نظام قيل قانون ، واذا قيل قانون قيل عقل مدبر ، وهذا العقل واحد أحد تبدو سمته فى ادارة الأجسام غير المحدودة فى العظم كما تبدو فى ادارة الأجسام غير المحدودة فى الصغر ، ذات اليد العلوية وعين أثرها فى كل شىء ، يد واحدة لا تتغير وقانون واحد لا يتغير . ان محمداً كما يبدو فى وصف الدكتور هيكل قد تأمل الطبيعة كثيراً ، وفكر ملياً فى نظامها العجيب فكشف عن بصيرته وبصره فامتلأ قلبه بالله ، كما اقتنع عقله بوجوده ، فجاء

دينه ديناً كاملاً ، صادقا فى نظر القلب والعقل معاً . ولئن كان على الأرض نبى أحب العـلم ، ولم يخش دينه العلم ، ولم يضطهد العلماء ، فهو « محمد » الذى قال : « فضل العلم خير من فضل العبادة » « اطلب العلم ولو فى الصين » وكثيراً من الأحاديث التى تثنى على العلم وتحض عليه . ذلك أن مصدر اقتناع العلم ومصدر اقتناع محمد واحد : الكون وملاحظة ما فيه من ابداع يتم عن يد الخلاق العظيم

فى كتاب حديث للعالم انشتين فصل ذكر فيه رأيه فى الدين ، فقال إنه يعتنق ما يسميه « الديانة الكونية » تلك الديانة التى تملأ قلب كل عالم انقطع لتأمل « ذلك التناسق العجيب بين قوانين الطبيعة وما يخفى من عقل جبار لو اجتمعت كل أفكار البشر الى جانبه لما كونت غير شعاع ضئيل أقرب القول فيه انه لا شىء »

لا ريب عندى أن احساس انشتين نحو الكون والله هو عين احساس محمد يوم كان يتحنث فى غار حراء قبل نزول الوحى . انمـا الأنبياء والعلماء قلوب واعية تشعر بجلال الله . ولا يمكن لنبى أن يكون نبياً إلا أن يشعر من تلقاء نفسه بعظمة الخليقة ويتحرق شوقاً الى معرفة صانعها ، ولا يزال الشوق بقلبه حتى يكشف له الصانع الأعظم عن بعض نوره ، ويوحى اليه بنشر هذا النور على الانسانية . انى كلما تأملت شخصية محمد مجردة ثبت ايمانى بأن الخصومة المعروفة بين العلم والدين ليس لها فى الحقيقة وجود ، وان الدين الحق لا يتعارض والعلم الحق . . . بل إن الدين والعلم شىء واحد ، كلاهما يطلب نور الله ويريد وجهه ، وكلاهما يعى ويؤمن ويلهج بتناسق الوجود ووحدة قوانينه ودلالة وحدة الوجود على وحدة الخالق . ولم يظهر نبى حق ولا عالم حق شعر بغير ذلك . انما الفارق بين العلم والدين فى السبل التى يسلكها كل فى الدنو من الله . ومن قال إن وسائل العلم ينبغى أن تماثل وسائل الفن أو وسائل الدين ؟ ؟ ؟

إن الطرائق والسبل يجب أن تظل مختلفة مميزة لا يختلط بعضها ببعض ، انما المصدر واحد دائماً والغاية واحدة . فما الدين والعلم والفن إلا خيوط ثلاثة كتب على بشريتنا القاصرة العمياء أن تتمسك بها لتهتدى الى ذلك النور الذى لا بداية له ولا نهاية : الله

إن الاسلام وهو أحدث الأديان ، وهو الذى لم يخاصم العلم ، وهو الذى اتسع صدره لكل شىء يصلح فيما يرى الدكتور هيكل لمعالجة أزمات العـــالم الحاضر ، الروحية والاجتماعية والاقتصادية . وهو رأى صـادق إذا قيض الله للاسلام رجالاً ذوى نظرة نافذة وذهن مستنير واطلاع واسع ، يبرزون فضائله بأسـاليب جديدة ، ويتولون إذاعته والدفاع عنه بأقلام ذكية قديرة . ولقد صنع هيكل كثيراً فى هذا السبيل بأسلوبه الجديد فى « حياة محمد » . ولئن كان قد أثم فى دنياه فلقد اشترى بكتابه آثامه ! ! ! ولسوف يتقدم يوم الدين وكتابه بيمينه يشفع له فى دخول الجنة !!! ولسوف يدخلها بأذن الله متأبطا ذراع طه حسين بما قدمت يمناه هو أيضاً من كتاب أدبى جميل « على هامش السيرة » ، كان له ولا ريب أبلغ الأثر فى حمل الناس على استمراء أخبار النبى ، ولهما بعد ذلك ولأمثالهما ممن دافعوا ويدافعون عن الاسلام خير التحية : فانى قلتها وأقولها دائماً : ليس الأمر أمر عقيدة وديانة ، إنما هو الى جانب هذا أمر حياة تلك الكتلة التى يسميها الغربيون : الشرق . وما الدفاع عن الاســلام إلا الدفاع عن الشرق ؟

توفيق الحكيم

صفحة من التاريخ — ليسمع العلماء

مشايخ الأزهر والسياسة

فى القرن الثامن عشر

للأستاذ محمد فريد أبو حديد



حدث غير مرة فى تاريخ العالم أن تصدى رجال الدين أو رجال العلم للسياسة ولم يكونوا فى ذلك مختارين ، بل كانت الظروف تدفعهم إلى موقف يجدون فيه أنفسهم مسئولين عن التدخل فى أمر السياسة . فلا يجدون مفراً من أن يضطلعوا بحملهم . حدث أن بابا (روما) وجد نفسه حيال حكومة غالبة على إيطاليا من قوم أجانب عن أهلها جنساً ولغة ، وذلك عند ما استولى القوط على إيطاليا ونزعوها من سائر الدولة الرومانية . وكان البابا بغير شك زعيم القوم فى أمور الدين ، فكان الغالبون من القوط يلجأون إليه فيما يمس قومه لكى يلتمسوا عنده رضا أهل البلاد . وكان أهل البلاد فى الوقت عينه يتطلعون إليه لكى يقف على رأسهم ويحفظ عليهم كيانهم وتقاليدهم ، ويتوسط عند أهل الدولة فيما يمس مصالحهم وأمور دنياهم . فكان لا غنى للبابا عن النظر فى أمور الدولة ، ولا مندوحة له عن التدخل فى أمور السياسة . وكان هذا هو شأنه عندما ذهبت دولة القوط وحكمت إيطاليا دولة اللمبارديين ، فان البابا وقف الموقف عينه ، ووجد نفسه بطبيعة الظروف القاهرة ممثل الايطاليين وزعيمهم والناطق بلسانهم إذا ما احتاج الأمر إلى من ينطق بلسان أهل البلاد فى وجه الدولة اللمباردية الحاكمة . وكذلك كان الحال عند ما جاء الروم إلى مصر وفتحوها وأقاموا بها الحكم على المصريين ، فان بطريق المصريين كان بحكم مركزه الدينى زعيماً فى قومه فى أمور الدين ، فلما جاء الروم صار ذلك الزعيم الدينى مضطراً إلى أن يمثل قومه عند الحكام وينطق بلسانهم ويتصدى لأمورهم ، حتى لقد أصبح بطريق المصريين فى آخر الأمر هو الممثل القومى للمصريين ؛ وكم وقف البطارقة على رأس الشعب المصرى فى وجه الحكم الأجنبى الرومانى ، ومن هؤلاء البطريق الأكبر بنيامين الذى ناله من التصدى لأمور السياسة أكبر الأذى ، وتحمل النفى والخوف ، وتحمل أتباعه من رجال الدين ألوان العذاب فى سبيل استقلال مصر كما كانوا يفهمونه

إذن لم يكن لمصر أن تخرج عن هذه السنة الطبيعية ، فانها كانت فى القرن الثامن عشر تحكمها حكومة على رأسها الباشا ممثل السلطان التركى ، ويعاونه الأمراء المصريون الذين هم من أجناس غير مصرية الأصل . فكان لا بد لهذا النظام أن يتجه إلى ممثلى الشعب وزعمائه ، وكان لا بد له أن يلجأ اليهم فى كثير من الأحوال لكى يسترضى ذلك الشعب ويتحبب اليه ويسهل بذلك طريق الحكم . وكان لا بد كذلك للشعب من أن يتخذ له ممثلين من من صفوفه وأن يجعل له زعماء يهرع إليهم إذا آذاه شىء من جانب الحكومة الأجنبية التى تحكم البلاد

وكان علماء الأزهر هم الطبقة المستنيرة من الشعب ، وهم الذين يعرفون تقاليد الحكم الاسلامى فى الدول الماضية ، وهم الذين يعرفون العرف الذى جرت عليه الأجيال الماضية فى أيام الحكومات المستقلة الجليلة التى حكمت البلاد من قبل . فكان من الطبيعى أن يتصدر هؤلاء العلماء فى الحوادث ، وأن يلجأ إليهم أهل مصر عند ما تلم بهم ملمة يطلبون إليهم أن ينادوا بالحق الذى يبيحهم إياه القانون ، وأن يطالبوا بالحريات التى كفلها لهم العرف والدين فى الأجيال المتعاقبة . ولقد تصدر جماعة من هؤلاء العلماء وقاموا بما وجب عليهم فى ذلك قياماً محموداً ؛ وإنا لذاكرون هنا بعضهم اعترافاً بما كان من فضلهم على البلاد

ولو شئنا أن نفصل مواقف مشايخ الأزهر فى أمور السياسة لما اتسع لذلك مجال القول هنا . ولهذا سنجتزئ بذكر ما كان منهم فى موقف واحد فى تاريخ مصر فى القرن الثامن عشر فى الوقت الذى اشتد فيه عبث مراد وإبراهيم بالمصريين

بلغت محاولات مصر نحو الاستقلال قصاراها فى عهد على بك الـكبير ، ثم قضى عليها إذ كان الوقت لم يحن بعد للاستقلال الدائم ، إذ أن الاستقلال لا يمكن أن يدوم إلا إذا قام على دعامة قوية من الشعب ، وهذا ما كان ينتظر حدوثه حتماً فى يوم من الأيام . غير أن الملك المصرى الذى حكم بعد على بك الـكبير لم يكن بأقل منه قدراً ، ولا بأهون منـه خطراً ، ولا بأهدأ منه حماسة للاستقلال . وقد أراد الله ألا تطول أيامه فمات والبلاد فى أشـد الحاجة إلى وجوده ليقوم على ملـكها ويسيطر على زعامتها . فوقعت السلطة فى أيد طائشة ليس لها خبرة بالحـكم ولا مكانة فى القلوب ، وأصبح الأمر فى يد مراد وابراهيم وهما من مماليك أبى الذهب ، ولـكنهما لم يكونا بعد قد صفـوا وجربا وظهرا فى الحوادث بالمظهر الذى يرشحهما ترشيحاً صادقاً لحـكم البلاد ، فحكما وكان حكمهما تجربة قاسية

كان الشعب المصرى قد خضع لعلى بك الـكبير ولمحمد بك أبى الذهب منـذ رأى فيهما ملـكين عظيمين قادرين على حمايته وحكمه ، ولـكنه لم يجد فى مراد وابراهيم غير طاغيتين متجبرين لا ينظران من الحـكم إلا إلى النفع ، ولا يعرفان من أساليبه إلا الـكبرياء والسطوة . ومنذ رأى فى الحاكمين الجديدين هذا تحرك واضطرب ووقف على استعداد للدفاع عن مصلحته وكرامته ثابتاً متنبهاً

وكان مشايخ الأزهر هم الطبقـة المستنيرة من أبناء مصر الصميمين ، جاءوا جميعاً من قراها وأريافها ومدنها ، فـكانوا من بين صفوف الشعب وأبناء الأرض يحسون ما يحسه الناس وينظرون بأعينهم ويسمعون بآذانهم . وقد زادوا على إخوانهم ميزة كبيرة بأنهم حفظوا فى صدورهم نصوص الشريعة والآراء المختلفة فى أحكامها وحفظوا ما تخلف من تراث القرون من عرف وما يبيحه القانون الاسلامى لأفراده من حقوق وحريات . فـكان من الطبيعى أن يقفوا من الشعب المصرى موقف الزعامة فى كل حادث جليل ، وأن ينطقوا باسمه ويعبروا عما فى قلبه من الآمال والآلام . فوقفوا على رأس الشعب فى كل خلاف قانونى حاول فيه الطغاة أن يخرقوا حرمة القانون ، وانتصروا فى كل وقفة من وقفاتهم فنصروا فيها القانون والحق ، ثم وقفوا يمثلون الشعب فى ديوان الحـكم فنطقوا باسم مصر وأعربوا عن آمالها وعن شخصيتها ، وانتصروا فى وقفتهم فأعلوا من اسم الشعب الذى يمثلونه ورفعوا رأسه ، ثم وقفوا على زعامة الشعب فى نضاله مع الطغاة فى سبيل إصلاح الحـكم ، وانتصروا مرة ثالثـة وساروا بشعبهم فى سبيل الحصول على ماله من الحقوق والحريات ؛ وما كان أجدرهم أن يبلغوا به الغاية والقصد ويقيموا فى مصر حكومة وطنية صالحة قائمة على احترام حقوق الأفراد والسعى إلى ما فيـه مصلحتهم . وما كان أحراهم لو طال بهم الزمن أن يبلغوا بعصر قصارى ما تصل إليه الأمم الحريصة على حقوقها الساعية إلى الاصلاح

بعد مضى سـنة واحدة من حكم الطاغيتين مراد وابراهيم ثارت مسألة فى خلاف على وقف ، ولم يكن للمسألة فى ذاتها خطر خاص ، بل كان الأمر نضالاً على مبدأ وقف فيه بعض الأمراء يلوحون بالقوة والطغيان ، ووقف فيه بعض أفراد الشعب يعتصمون بالحق والشريعة . والتجأ الجانبان إلى المحكمة فحكمت حكمها فى الخلاف . وكان فى مصلحة الأفراد على رغم ما يريده الأمير المدل بالقوة ، فأبى الأمير الأذعان ، وأصبح الأمر معلقاً بين أن ينتصر القانون وبين أن تجتاح القوة كل سياج وكل حرمة . فأدرك العلماء أن واجبهم يناديهم بالمحافظة على القانون ، ولم يترددوا لحظة ، بل هبوا لينصروا الحق لم يتخلف منهم واحد ، وكان على رأس الحركة الشيخ الدردير رحمه الله وطيب ثراه . أرعد الأمير وأبرق ، وأرغى وأزبد ، ونهر وتوعد ، غير أن العلماء وقفوا وثبتوا ، وأرغوا وأزبدوا فى سـبيل الحق والقانون . وقام الشعب من ورائهم يؤيدهم ، وكانت مظاهرة كبرى ، فأغلق الناس حوانيتهم انتصاراً للعلماء والشرع ، وأوشك الأمر أن يفضى إلى فوضى شاملة . فجزع عقلاء الأمراء المصريين من تلك الحال وأشفقوا أن تسيل الدماء وأن تعطل المصالح . فاجتمعوا وتشاوروا ثم أرسـلوا إلى الأمير المعاند فاحتجوا على موقفه وأمروه بالنزول على ما أراد القانون ، فأذعن وهو كاره بعد مشادة عنيفة ، ولم يرض العلماء أن يتركوا الأمر يفلت من أيديهم بغير حق مسـجل يكتسبونه للناس ، فـكتب لهم صلح رسمى به شروط على الأمراء وتعهد من الحـكام بالتزام ما يقضى به القانون ويحتمه العرف . وهكذا كان العلماء يكسبون للشعب حقوقه حقاً حقاً ويبنون فى

دستور مصر حجراً بعد حجر وإن كانوا فى ذلك يسيرون فى تؤدة وبطء

وإنا إذا ذكرنا اسم الشيخ الدردير فلسنا نذكره إلا لأنه كان علم القوم وزعيمهم . ولقد كان معه عدد كبير من إخوانه يستند اليهم وينتصر بامدادهم . وفى الحق إن العلماء بمثل هـذه الهمة لم ينزلوا ولم يسمحوا لأنفسهم أن ينزلوا إلى موضع المهانة فى تلك الأيام التى يصفها البعض بأقسى النعوت . بل لقد كانوا أكفاء لأعلى الرؤوس فى الدولة ؛ ثارت مرة مناقشة حادة بين بعضهم وبين أمير من كبار الأمراء فى مسألة قانونية ، فخرج الأمير الغاضب عن حدود الأدب بأن قال للعالم : « والله أكسر رأسك » فكان جواب العالم الغاضب أشد وأقسى ، إذ قال له صارخاً : « لعنك الله ولعن اليسرجى الذى جاء بك ومن باعك ومن اشتراك ومن جعلك أميراً » وتوسط من كان بالمجلس من الأمراء فيما بينهما . ولم يجد الأمير بداً من الاذعان لما يقضى به الشرع حسب ما رآه العلماء

وكان بيت العالم حرماً لا يعتدى عليه مهما كان الباعث على ذلك ، فقد كان بعض الأمراء يهربون خوفاً من انتقام منافسيهم فلا يجدون ملجأ يهربون إليه ويعتصمون به إلا بيت العالم يدخلونه ليأمنوا فيه . وقد طلب من أحد العلماء مرة أن يسلم جاره الأمير الذى دخل بيته ملتجئاً فلم يرض أن يسلم اللاجئ إلى بيته ، ولم يجرؤ أحد على دخول منزله عنوة خوفاً من أن يكون فى ذلك جرح لكرامة زعيم من زعماء الشعب

وقد زاد نفوذ العلماء فى أيام هذا الاضطراب وعلا صوتهم فأصبح مسموعاً داوياً فى الحوادث الكبرى ، كما أصبح مسموعاً داوياً فى الديوان الذى كان ينعقد بالقلعة لحكم البلاد ، وكان فيه الأمراء والرؤساء وأكابر العلماء يمثلون الشعب . وأصبح صوت العلماء فى ذلك الديوان يمثل المعارضة وينادى بما فيه نفع لمصر وما فيه مصلحة أبناء مصر

ثم أرسلت تركيا جيشاً بقيادة القبطان حسن باشا لتأديب الطاغيتين مراد وابراهيم على سوء حكمهما فخرج العلماء على رأس وفد لمقابلة القائد التركى ليذكروه بضرورة الاحتراس والاحتياط فى حربه مع الأمراء حتى لا يؤذى مصالح الناس ولا يضحى بأموالهم . قال الجبرتى يصف ذلك : « فتعين لذلك الشيخ أحمد العروسى والشيخ محمد الأمير والشيخ محمد الحريرى ، ومن الأجاقلية اسماعيل أفندى الخلوتى وابراهيم أغا الوردانى وذهب صحبتهم سليمان بك الشابورى ... ... على أنهم يجتمعون به (بالباشا القائد) ويكلمونه ويسألونه عن مراده ومقصده ويذكرون له امتثالهم وطاعتهم . . . . ويذكرونه حال الرعية وما توجبه الفتن من الضرر والتلف »

وقد بلغ من ذعر ابراهيم ومراد وخوفهما من حركة الشعب أن جعلوا فى ذلك الوقت يتملقون المشايخ خوفاً منهم أن ينتهزوا الفرص فيثيروا على حكمهم ثورة عند ما تقبل جنود الدولة العلية من الشمال . قال الجبرتى : « فذهب ابراهيم (فى عيد الفطر) إلى الشيخ البكرى ثم إلى الشيخ العروسى والشيخ الدردير وصار يحكى لهم وتصاغر فى نفسه جداً وأوصاهم على المحافظة وكف الرعية عن أمر يحدثونه أو قومة أو حركة فى مثل هذا الوقت فانه كان يخاف ذلك جداً »

وقد كسب العلماء للمصريين حقاً جليلاً فى أثناء هذه الحوادث فانه بفضل سعيهم أصدر القائد التركى حسن باشا عند ما دخل مصر قانوناً كان يقضى بأن أهل مصر لا يمس أحد منهم إلا بمقتضى القانون الشرعى وأن لا سبيل على أحد منهم إلا بمقتضى ذلك القانون وحده . ثم لم يتردد العلماء بعد ذلك فى الوقوف إلى جانب القانون ولو كان وقوفهم فى وجه الباشا القائد المنتصر نفسه . فانه عقب انتصاره أحب أن ينكل بالمنهزمين من الأمراء المصريين فأراد أن يبيع نساءهم ، مع أن القانون الشرعى لا يبيح بيع الجارية المملوكة إذا صارت أما أو أصبحت حرة ، فوقفوا فى وجهه ولم يمكنوه من ذلك لمخالفته للحقوق المكفولة للأفراد فى الشريعة الاسلامية

أما فى جلسات الديوان فلم يكن صوت العلماء أضعف جرساً ، فكانوا يعارضون فى كل شئ يمس مصالح المصريين حتى فى الأمور الخاصة بالدولة ذاتها ، فقد عرضت مرة مسألة فى الديوان خاصة بالاستعانة بجنود من بلاد الدولة العثمانية ، فوقف الشيخ العروسى فقال : « إن الأمر لا يحتاج إلى ذلك ، فان العساكر الرومية (التركية) لا تنفع بين العساكر المصرية ، والأولى استجلاب خواطر الجند بالاحسان اليهم ، والذى تعطونه للأغراب أعطوه

لأهل بلادكم أولى » وقد أخذ الديوان برأيه فى ذلك اليوم

ولكن العلماء كانوا أظهر تمثيلاً للشعب المصرى ، وأكثر جلالاً فى وقوفهم على رأس مظاهرات العامة كلما جد أمر يدعو الى الاحتجاج ، أو حدث حادث فيه تعرض للحقوق والحريات . ولم تكن تلك الحركات قليلة ، كما أنها لم تكن مقصورة على القاهرة ، فقد ثارت ثورات فى القاهرة ، وثارت مثلها فى رشيد ، ومثلها فى طنطا وفى بلبيس . وكان العلماء دائماً على رأس تلك الثورات الشعبية ، يظلون كذلك حتى ينتهى الأمر باذعان القوة للحق . قال الجبرتى فى وصف ثورة من ثورات الشعب فى الحسينية : « وحضروا الى الأزهر ومعهم طبول ، والتف عليهم جماعة كثيرة من أوباش العامة ، وبأيديهم نبابيت ومساوق ، وذهبوا الى الشيخ الدردير فونسهم وساعدهم بالكلام ، وقال لهم : أنا معكم » واستقر العزم عند ذلك على جهاد الأمراء الظالمين وايقافهم عند حد القانون بالقوة مالم ينتهوا بالقول . وحدث مثل ذلك فى طنطا وكان الشيخ الدردير كذلك على رأس المتظاهرين ضد الظلم هناك ، قال الجبرتى : « فركب بنفسه وتبعه جماعة من العامة حتى التقى بالأمير ، فكلمه ووبخه ، وهو راكب على بغلته ، وقال له : أنتم ما تخافون الله » وحدث اصطدام أثناء ذلك بين العامة والحاكم وأتباعه ، أصيب فيه جماعة من الجانبين ، وضُرب الحاكم نفسه ضرباً شديداً

وحدث مرة أخرى أن اعتدى موظف إدارى وهو (الوالى) أحمد أغا على بعض أهالى الحسينية ، واشتد فى مطالبة أحمد سالم الجزار ، وأراد القبض عليه مخالفاً فى ذلك العهد الذى تعهد به الباشا من قبل ، ألا يمس أحد إلا بمقتضى الشريعة الاسلامية . فثار أهل الحسينية ثورة هائلة ، والتجأوا الى الشيخ العروسى يلتمسون عنده الحماية من الظلم (وكان الشيخ الدردير قد توفى الى رحمة الله) فقام الشيخ العروسى بأمر الوساطة فى شأنهم ، وانتهى الامر بعد مشادة طويلة بعزل الوالى وتولية وال آخر . قال الجبرتى : ونزل الوالى الجديد من الديوان الى الأزهر ، وقابل المشايخ الحاضرين واسترضاهم . ثم ركب الى بيته وانفض الجمع ، وكأنها طلعت بأيديهم والذى كان راكباً حماراً ركب فرساً »

واشتدت مرة وطأة أحد الأمراء على أهل بلبيس فى تحصيل الأموال ، فالتجأ الفلاحون الى الشيخ الشرقاوى ليحميهم ، فبدأ الشيخ بمخاطبة مراد وابرهيم ، فلما لم يجد لمسعاه أثراً فى إصلاح الحال بالسعى السلمى ، دعا الى الثورة فاجتمع له كثير من أهل القاهرة ومن أهل الأطراف ، وأوشك الأمر أن يكون ثورة دموية مدمرة ، وقضت القاهرة ثلاثة أيام فى اضطراب وخوف ، قال الجبرتى : « ثم حضر الباشا إلى منزل ابرهيم بك ، واجتمع الأمراء هناك ، وأرسلوا الى المشايخ ، فحضر الشيخ السادات والسيد النقيب والشيخ الشرقاوى والشيخ البكرى والشيخ الأمير ... ... ودار الكلام بينهم وطال الحديث ، وانحط الأمر على أنهم (الأمراء) تابوا ورجعوا والتزموا بما شرطه العلماء عليهم ، وانعقد الصلح ... ... وان يكفوا أتباعهم عن امتداد أيديهم إلى أموال الناس ... ... ويسيروا فى الناس سيرة حسنة ... ... وكان القاضى حاضراً بالمجلس ، فكتب حجة عليهم بذلك ، وفَرَّمن عليها الباشا ، وختم عليها ابرهيم بك وأرسلها الى مراد بك فختم عليها أيضاً ، وانجلت الفتنة ورجع المشايخ وحول كل منهم وأمامه وخلفه جملة من العامة ، وهم ينادون حسب ما رسم سادتنا العلماء »

وبعد فما الذى بين هذه الحال وبين بناء صرح الحريات المصرية كاملا متماسكا ؟ لقد كان العلماء يبنون ذلك الصرح حجراً حجرا ، وكان الشعب من ورائهم يطالب بحقوقه ولا يتنازل عن شىء منها مطالبة المصرّ على الحياة الكريمة العازمة على التمتع بانسانيته تمتعاً تاماً . وما كان لمثل هذا الشعب أن ينتهى به السير إلا عندما يريد من العزة والكرامة

غير أن الله لم يرد أن يكون هذا فى ذلك الوقت ، فقد نزلت بمصر كارثة الغزوة الأجنبية ، غزوة الحملة الفرنسية التى عاقت ذلك السير المجيد وحفرت هوة عميقة بين ماضى مصر المجيد وحاضرها ، وبين سعيها فى القرن الثامن عشر وسعيها اليوم

ألا فلتقطع ألسنة الذين يقولون إن دستور مصر كان منحة مهداة ، أوأن حريات مصر كانت عطية مسداة . فلقد كان شعب مصر لاينى يسعى إلى تلك الحريات ، ويحمى تلك الحقوق ، مضحياً فى ذلك بكل شىء ، حتى بالدماء !

محمد فريد أبو حديد

عـــــبرة الأندلس

للأستاذ محمد عبد الله عنان



ليس فى تاريخ الاسلام كله صفحة أدعى إلى الشجن والأسى من تاريخ الأندلس ؛ ففى الأندلس وحدها بادت أمة اسلامية عظيمة ، ومحيت حضارة اسلامية زاهرة ، ولم تبق ثمة من تلك الصفحة الباهرة سوى أطلال وذكريات دارسة

وقد زالت دولة الاسلام فى الأندلس ومحيت صفحته وأبيد أبناؤه منذ أربعة قرون ؛ وقام فوق الأرض شعب غير الشعب ، ودين غير الدين ، وحضارة غير الحضارة ؛ ولكن المأساة ما تزال حية فى صدر كل مسلم يستعرض هذه الصفحة ، وما زالت تثير فى النفس بالغ الحسرات

عاشت دولة الاسلام فى الأندلس زهاء ثمانية قرون ؛ ولم يكن غريباً أن تغيض فى هذا القطر النائى المنعزل عن باقى الأقطار الاسلامية ، بعد أن لبثت قروناً تمزق بعضها بعضا ، ولكن الغريب هو أنها استطاعت رغم جراحها الدامية أن تصمد للعدو الخالد المتربص بها مدى قرون

على أن تاريخ الأندلس نفسه يقدم الينا سر هذا الفناء البطىء الذى سرى إلى الدولة الاسلامية منذ قيامها ؛ وسنحاول أن نستعرض فى هذه اللمحة السريعة بعض العلل الجوهرية التى أصابت المجتمع الاسلامى فى الأندلس منذ تكوينه ، وغدت بمضى الزمن داء ذريعاً يقضم أسسه ويقوض دعائمه ، وما زالت به حتى استنفدت قواه وحملته إلى هاوية الانحلال والعدم

كان فتح العرب لاسبانيا فاتحة عصر جديد وبدء تطور عظيم فى حياتها العامة وفى نظمها الاجتماعية . ومع أن العرب شغلوا حيناً بتوطيد الفتح الجديد ودفع حدوده ، فانهم استطاعوا فى أعوام قلائل أن يقمعوا عناصر الشر والفوضى وأن ينظموا إدارة البلاد المفتوحة ، وأن يبثوا فى الجزيرة روحاً جديداً من الأمل والحياة . وقد قضى الفتح على سلطان الطبقات الممتازة ، وتنفس الشعب نسيم الحرية ، وفرض المسلمون الضرائب بالمساواة والعدل بعد أن كان يفرضها حكم الهوى والجشع ، وأمن الناس على حياتهم وحرياتهم وأموالهم ، وترك الفاتحون لرعاياهم الجدد حق اتباع قوانينهم وتقاليدهم ، والخضوع لقضاتهم . أما فى شأن الدين وحرية العقائد والضمائر فقد كانت السياسة الاسلامية مثلاً أعلى للتسامح ، فلم يظلم أحد أو يرهق بسبب الدين والاعتقاد ؛ وكانت تأدية الجزية هى كل ما يفرض على الذميين من النصارى واليهود لقاء الاحتفاظ بدينهم وحرية شعائرهم ، ومن دخل الاسلام سقطت عنه الجزية وأصبح كالمسلم سواء بسواء فى جميع الحقوق والواجبات . وفى ذلك يقول العلامة دوزى : « لم تكن حال النصارى فى ظل الحكم الاسلامى مما يدعو الى كثير من الشكوى بالنسبة لما كانت عليه من قبل . أضف الى ذلك أن العرب كانوا يتصفون بكثير من التسامح ، فلم يرهقوا أحدا فى شئون الدين . . . ولم يغمط النصارى للعرب هذا الفضل ، بل حمدوا للفاتحين تسامحهم وعدلهم وآثروا حكمهم على حكم الجرمان والفرنج » ثم يقول دوزى عن آثار الفتح الاجتماعية : « كان الفتح العربى من بعض الوجوه نعمة لاسبانيا ؛ فقد أحدث فيها ثورة اجتماعية هامة ، وقضى على كثير من الأدواء التى كانت تعانيها البلاد منذ قرون . . »

غير أن هذه الدولة الجديدة التى بعثها الاسلام فى اسبانيا ، كانت تحمل منذ البداية جرثومة الخلاف والخطر ، وكان هذا المجتمع الجديد ، الذى جمع الاسلام شمله ومزج بين عناصره يضطرم بمختلف الأهواء والنزعات ، وتمزقه فوارق الجنس والعصبية . كانت القبائل العربية ما تزال تضطرم بمنافساتها القديمة الخالدة ، وكان البربر الذين يتألف منهم معظم الجيش يبغضون قادتهم ورؤساءهم من العرب ، وينقمون عليهم استئثارهم بالسلطة والمغانم الكبيرة ، وكثيراً ما رفعوا لواء العصيان والثورة . وكان المسلمون الأسبان ، — وهم المولدون أو البلديون — محدثون فى الاسلام يشعرون دائماً بأنهم رغم اسلامهم أحط من الوجهة الاجتماعية

من سادتهم العرب . ذلك أن العرب ، رغم كون الاسلام ، يسوى بين جميع المسلمين فى الحقوق والواجبات ، ويمحو كل فوارق الجنس والطبقات ، كانوا يشكون فى ولاء المسلمين الجدد ، ويضنون عليهم بمناصب الثقة والنفوذ ؛ هـذا إلى أن العربى فى الأقطار القاصية التى افتتحها بالسيف لم يستطع أن يتنازل عن كبرياء الجنس التى كانت دائماً من خواص طبيعته ، فكان مثل الانكليزى السكسونى يعد نفسه أشرف الخليقة . على أن الخلاف بين العرب أنفسهم كان أخطر ما فى المجتمع الجديد من عوامل التفكك والانحلال ؛ فقد كانت عصبية القبائل والبطون ما تزال حية فى الصدور ، وكان التنافس بين الزعماء والقادة يمزق الصفوف ويجعلها شيعاً وأحزاباً ، وكانت عوامل الغيرة والحسد تعمل عملها فى نفوس القبائل والبطون المختلفة . وأشد ما كانت تستعر نار الخلاف والتنافس بين اليمنية والمضرية ، وذلك لأسباب عديدة ترجع الى ما قبل الاسلام ، منها أن الرياسة كانت لعصور طويلة قبل الاسلام فى حمير وتبّع أعظم القبائل اليمنية ، وكانت لهم دول ومنعة وحضارة زاهرة ، بينما كانت مضر بدواً خشنين يخضعون لحمير ويؤدون لهم الجزية ؛ وكان بينهما خصومات وحروب مستعرة طويلة الأمد ؛ ولنا فى « أيام » العرب ووقائعها المشهورة أمثلة رائعة من هـذا النضال . قال ابن خلدون « واستمرت الرياسة والملك فى هذه الطبقة اليمانية أزمنة وآماداً بما كانت صبغتها لهم من قبل ، وأحياء مضر وربيعـة تبعاً لهم — فكان الملك بالحيرة للخم فى بنى المنذر ، وبالشأم لغسان فى بنى جفنة ويثرب ، وكذلك فى الأوس والخزرج ، وما سوى هؤلاء من العرب فكانوا ظواعن بادية ، وأحياء ناجعة ، وكانت فى بعضهم رياسة بدوية ، وراجعة فى الغالب إلى أحد هؤلاء . ثم نبضت عروق الملك وظهرت قريش على مكة ونواحى الحجاز ؛ فاستحالت صبغة الملك اليهم ، وعادت الدول لمضر من بينهم ، واختصت كرامة الملك بالنبوة منهم ، فكانت فيهم الدول الاسلامية كلها إلا بعضاً من دولها ، قام بها العجم اقتداء بالملة وتمهيـداً للدعوة » . وهكذا أسفر النضال لظهور الاسـلام عن تحول فى الرياسة ، وانقلبت الآية فأصبحت المضرية تعمل على الاحتفاظ برياستها ، واليمنية تجاهد فى انتزاعها منها . وكانت مسألة اللغة أيضاً من أسباب ذلك الخلاف . ذلك أن لسان حمير كان أصل اللغة العربية التى اعتنقتها مضر ، وأسبغت عليها آيات باهرة من الفصاحة والبيان ، ونزل بها القرآن الكريم على النبى القرشى المضرى ، فكانت اللغة من مفاخر مضر تغار عليها ، وتحافظ على سلامتها ونقائها ، بينما فسدت لهجات القبائل الأخرى بالاختلاط وضعف بيانها ؛ أضف الى هذا وذاك ما كان بين الفريقين من تباين شـديد فى الطبائع والخلال مما كان يذكى بينهما أسباب التنافس والتباعد ، وقد كان الاسلام مدى حين عاملاً قوياً فى جمع الكلمة ، ولكن العصر الأول ما كاد ينقضى حتى هبت كوامن الخصومة والنضال من مرقدها وعادت تعصف بوحدة المجتمع الاسلامى ، وكان هذا الخلاف أخطر وأشـد فى الأقطار القاصية التى افتتحها الاسلام بالسيف ، ففتحت أمام القبائل والأجناس المختلفة التى تعمل تحت لوائه مجالاً واسعاً للتنافس والتطاحن ؛ وكان هذا هو بالأخص شأن المجتمع الاسلامى المضطرم الذى قام باسبانيا

وكان البربر الذين اشـتركوا فى فتح الأندلس واستعماره عنصراً خالداً فى إذكاء هذا الخلاف ؛ فكانت هذه المعركة المزدوجة : العرب فيما بين أنفسهم ، ثم العرب والبربر ، هى قوام المجتمع الأندلسى

* * *

كان هذا الخلاف المستعر يقضم أسس المجتمع الأندلسى الفتى ، ولم يمض على قيامه أربعون عاماً حتى تحولت الأندلس الى بركان مضطرم من الحروب الأهلية ؛ واستمرت هذه المعارك الداخلية زهاء قرن ونصف ، ولم يقف تيارها قيام دولة أموية جـديدة ، ولم تتخللها فى ظل هذه الدولة سوى فترة يسيرة من السكينة والتوطد ، منذ الناصر الى المنصور . بيد أن خطراً جديداً كان يتربص بهذه الدولة الاسلامية التى يمزقها الخلاف الداخلى ، هو خطر المملكة النصرانية الاسبانية ، التى نشأت صغيرة متواضعة ونمت بسرعة مدهشة ، وأخذت تنافس المملكة الاسلامية ، وتتحين فرص الايقاع بها ، ولم تفطن الأندلس الى هذا الخطر الداهم ؛ وما كاد صرح الدولة الأموية ينهار ، حتى وثب المتغلبون على أشـلاء الأندلس يقتسمونها ، وقامت دويلات الطوائف فى المقاطعات والمدن ، تنافس بعضها بعضاً ، وتحاول كل منها أن

تنتزع ما بيد الأخرى ، وألفى عدو الأندلس الخالد — أسبانيا النصرانية — فرصـــته السانحة ، فأخذت تؤاب دويلات الطوائف بعضها على بعض ؛ وملوك الطوائف يرتمون فى أحضان النصارى ، ويلتمس كل محالفتهم على خصمه ومنافسه . وكادت الأندلس يومئذ تسير مسرعة إلى قدرها المحتوم ، وانتزع النصارى كثيراً من قواعدها وأراضيها ، لولا أن ظهر فى الميدان عامل جديد ، هو قيام الدولة المرابطية فيما وراء البحر ، ومقدم أميرها يوسف بن تاشفين إلى الأندلس على رأس جنوده البربر ، ملبياً داعى الغوث من جانب ملوك الطوائف ؛ فهنا استطاعت الدولة الاسلامية أن تنسى خلافها مدى لحظة ، وأن تلقى على النصرانيـة بمؤازرة المرابطين هزيمة حاسمة فى سهول الزلاقة ؛ ثم افتتح المرابطون الأندلس ، وأقاموا بها دولة جديدة ، ولـكن الصرح القوى الباذخ كان قد أخذ ينهار ؛ ولم يدم تماسك الدولة المرابطية طويلاً ، فقامت بالأندلس ملوك طوائف بربرية جديدة ، وعادت الأندلس تسير إلى فنائها ، وجاء الموحدون بعـد المرابطين ، فوصلوا دولة البربر بالأندلس مدى حين

ثم كانت دولة بني الأحمر بغرناطة ، وكانت أندلس جديدة ، ولـكن صغيرة لا تعدو القطر الجنوبى المسمى بهذا الاسم ؛ وكانت اسبانيا النصرانية قد نمت واتسع نطاقها ، واستولت على قواعد الأندلس وثغوره العظيمة : قرطبة مهد الاسـلام ، وطليطلة ، وأشبيلية ، ومرسية ، وبلنسية ، وسرقسطة وغيرها ، وسطعت فى مملكة غرناطة ، مدى حين ، لمحة من عظمة الأندلس الذاهبة وحضارتها الزاهرة ، واجتمعت أشلاء الدولة الأندلسية العظيمة فى هذه المملكة الصغيرة المتواضـعة ، وشغلت الممالك النصرانية الشماليـة مدى حين بخلافها الداخلى . ولـكن الأندلس كانت تشعر بمصيرها شعوراً قوياً ، واستطاع رجال مثـل ابن الخطيب وابن خلدون أن يستشفوا ببصرهم الثاقب ذلك المصـير المروع الذى تسير اليه مملكة غرناطة . ذلك أن نفس الخلاف الداخلى الذى قامت عليه الدولة الاسـلامية منذ البداية ، واستمر يدفع الأندلس إلى مصيرها خـلال القرون ، كان يعصف أيضاً بهذه المملكة الصغيرة ، ولم يمض بعيـد حتى أخذت تمزقها المعارك الداخليـة ، ويثب أمراؤها بعضهم ببعض ، ويستعدون خلال هذه المعركة الخطرة ، العدو الرابض المتربص بهم جميعاً

وكان مصرع الأندلس خلال إحدى هذه المعارك الداخلية ، وما زالت قصـة السلطان أبى الحسن ، وأخيه الزغل ، وابنه عبد الله أبى محمد ، وانشقاق المملكة الصغيرة فى أدق ساعات الخطر إلى شطرين ، والتجاء أبى عبد الله إلى ملك النصارى لينصره على أبيه وعمه ، ثم انتهاز النصارى هذه الفرصـة لا يقاع ضربتهم الأخيرة بتلك المملكة التى مهدت لهم سبل الظفر بتمزيق بعضها بعضاً ، وتلك الأمة المسلمة التى لم تعرف قط أن تواجه الخطر متحدة الـكلمة والقوى — ما زالت هذه كلها عبرة العبر ، وكان مصرع الأندلس هذه المرة يسيراً محققاً ، فسقطت قواعدها الباقية تباعاً فى يد النصارى ، وسلمت غرناطة أخيراً ، ووقعت النتيجة المحتومة ، وطويت صفحة الدولة الاسلامية فى الأندلس ، ولم يمض جيل أو اثنان حتى طويت صفحة الاسلام كله ، وكل آثاره وذكرياته من اسبانيا

وقد كانت مأساة الأندلس وما زالت عبرة بالغة ودرساً خالداً للعالم الاسلامى كله . ولـكن العالم الاسلامى لم يعتبر بهذه العبرة ، ولم يع هـذا الدرس ، وما زال التفرق يمزق أوصاله حتى التهم الغرب الجشع معظم أشلائه ، وأضحى الاسـلام ذليلاً فى أرضه تخفق عليها أعلام النصرانية

فانى يسير الاسلام ؟ ومتى يدرك العالم الاسلامى قوة الاتحاد ؟

محمد عبد الله عنان
المحامى

الشهيد الغريب

عثمان بن مظعون

للأستاذ محمد سعيد العريان

بات (عثمان بن مظعون الجمحيّ) ليلتَـه يقلِّبُ الرأى ، ويستلهم الفطنة ؛ وإن الهمّ ليصطرع فى رأسه ، وإن الشك ليتلجلج فى صدره ، وإن بين عقله وعاطفته لحرباً مشبوبة ومعركةً طاحنة

أحقٌّ ما يقول محمد بن عبد الله ؟ فما هذه اللاتُ والعُـزَّى ، ومَناةُ الثالثةُ الأخرى ؟ وما دينُنا الذى أورثَنا آباؤنا ومضى عليه أسلافُنا ؟ أذلك الحقّ أم دين محمد ؟

إنى لأعرفه مذ كان — أصـدقَ العرب حديثاً وأعظمَها أمانة ؛ أفيكذب حين يبدو الشيبُ فى صدغيه ، ثم لا يكون كذبه إلا افتراءً على الله . . . ؟

أما وربِّ الـكعبة لقد جاء محمد بأمر عظيم ، إن يكن الصدقَ فما يقعد بى أن أكون فى السابقين اليه . . . ؟

فلما أسفر الصبح ، غدا عثمان على محمد فى مجلسه ليسمع منه ؛ فما هو إلا أن تلا عليـه آياتٍ من الـكتاب حتى اهتزّت نفس عثمان ، ونفذت السماء إلى قلبه ، وغمره النور الالـهى ، وشرح الله صدره للاسلام ، فتمّت به عدةُ المؤمنين اثنى عشر . . .

وانطلق عثمان إلى أهله يدعوهم الى الله ؛ فما تلبّث أخواه (قدامة وعبـد الله) أن آمنا بما آمن ، وآمن من بعدهم بضع عشرة من بنى عمه وولده ؛ وإذا المؤمنون يزيدون ويكثرون ، وإذا الدين الجديد يتنقّل نبؤه فى همس من فم إلى أذن ، وينفذ فى رفق من قلب إلى قلب ، ثم يتدافع فى قوة حتى ينتظم الأربعين من شباب قريش وكهولها . ثم إذا هو من بعدُ نداءٌ عامٌ ، يدعو إليه رسولُ الله من فوق (الصفا) ، فيفشو أمرُه ، ويتحدّث به الناس ، وتتناقله القبائل ، وتتقاذفه فلوات شبه الجزيرة ؛ فما ينكر على محمد دعوته إلا الملأ من أشراف العرب . . .

أكنتَ ترى السادة من قريش أهلَ الرفادة والسقاية — ينزلون عن جاههم وسلطانهم بهـذا الهوان لمحمد ؛ أم تحسبهم يتركون ما كان يعبد آباؤهم مختارين انقياداً لهذا الداعى ؟

إن كبرياء النفس البشرية هو إيمانها بنفسها ؛ فما يغلبها على كبريائها إلا الايمانُ الأكبر ؛ وما إن تبلغ هذا الايمانَ إلا مقهورة عليه ، نازلة على سلطانه الأقوى ، منقادة له انقياد الرضى والاستسلام ؛ فاذا هى بلغتْ ذاك فقد تبدّلت النفسَ غير النفس ؛ فما تتكبّر إذ تتكبر بنفسها ولـكن بما تدين ، وما تُفاخر حين تفاخر بخصائصها الذاتية ، ولـكن بقوة العقيدة التى اعتنقت ؛ ويعود تعصُّبها لنفسها تعصباً للحق الذى آمنت به ، ومن ثمّ كانت مدافَعة العرب للنبىّ شديدة ، حتى إذا دمغهم الحق ونال من كبرياء أنفسهم ، إذا هم أبرُّ الناس به ، وأخلصهم فى طاعته ، وأشدّهم استبسالاً فى الدعوة إلى دينه والذياد عنـه ؛ فـكانت هذه المعجزة الانسانية الـكبرى التى انبثق لها هذا الفجر الضاحك فأشرق بالسلام على البشرية كلها ، وامتدّ امتداد القدر يقبض راحته على الدنيا ، وانبسط انبساط الأمل يتناول كل ما فى الوجود ، ورسم للانسانية حدودَ سـعادتها فى معانى الأخاء والمساواة والحرية !

* * *

تذامر الملأُ من أشراف مكة على محمد وأصحاب محمد ليفتنوهم عن دينهم ، فآذوهم فى أنفسهم وأهليهم وأموالهم ، وأخذوهم بكل نـكال ، حتى بلغوا من تعذيبهم الغاية ولم يبلغوا من مسلم أربا ؛ ورأوا أمر الله أغلب من أمرهم فى هذه القلوب ، فمضوا يفتنـُّون فى الـكيد لهم ما يتورّعون من شر . وأيقن المستضعفون من المسلمين أن لا مقام لهم على هذا الهوان خوفَ الفتنة ، فجلوا عن أرضهم وديارهم فراراً إلى الله بدينهم . . . !

وانطلق عثمان بن مظعون يَقْدُم الفوجَ الأول مهاجرين إلى الحبشة ، تفيض أعينهم من الدمع حزناً ، أن تركوا أموالهم وأولادهم وعشيرتهم ، منهم الراجل قد ثقلت عليه نفسه ، والراكبُ قد ناء بما يحمل من همّه . حتى انتهوا إلى البلد الذى أرادوا

وأمنوا الفتنة ، يروحون ويغـدون فى ظلّ مَلِكٍ كريم . أفتراهم على ذلك قد اطمأنّت بهم الدار ؟ ومن أين للغريب النازح عن أهله وأحبابه أن تستقرّ به الدار !

وطال بهم الحنين إلى بلدهم وإلى مشرق النور من وجه النبىّ

الكريم ، يستروحون من كل نسمة تهب من أرض الحجاز ذكرى تشوق وحنيناً يستجد . فما كذبوا أن جاءهم بشير باسلام قريش ، فقفلوا آملين مستبشرين ، وما منهم إلا مشرق الوجه تحدثه نفسه حديث البعد يوشك أن تستقر به النوى ويلقى عصاه بين أحبته وأهله وملاعب صباه !

ثم ما هي إلا أن دانوا مكة وبدت لهم أعلامها وهبت عليهم نسماتها ، حتى انكشف لهم أن إسلام قريش لم يكن إلا أمنية . . . فألقوا على الوطن المهجور نظرة اللهفان فاتته المنى ، ثم لووا عنان الركب عائدين إلى المهاجر ، وإن قلوبهم لتتلفت مودعة وما سعدت باللقاء . . . !

وتحدرت دمعتان على وجه عثمان إذ حضرته صورة المصطفى من الله ، فهفت نفسه إلى لقائه ، وهان عليه ما يستهدف له من أذى المشركين ما دام سعيداً بطلعة النبي ، يراه في كل غدوة ورواح ، ويستمتع به كلما حلا له أن يستمتع

ودخل مكة في جماعة من المهاجرين مستخفين على حذر ورقبة ، حتى لقيه (الوليد بن المغيرة المخزومي) فاستظل بجواره وأمن عثمان عدوان المشركين في حماية أعز قريش وأمنعها ، ومن ذا يجرؤ أن يستبيح ذمة الوليد في جاره ؟ فانه ليغدو ويروح لا يناله شر ولا يعرض له أحد بسوء . . . !

وخرج عثمان مرة لبعض شأنه ، فاذا هو يبصر رجلا من أصحاب رسول الله مطروحاً على الرمضاء عارياً في حر مكة وقد حميت الظهيرة ، قد وضعت على صدره صخرة ينوء بها الفحل ، تعذيباً له بما آمن بمحمد !

واهتزت نفس عثمان مما رأى ، وبرح به الألم مما ينال أخاه المسلم فلا يستطيع له دفعاً ، فصغرت نفسه في عينه ، ومضى والهم يجثم على صدره أثقل من صخرة العذاب على صدر أخيه !

ومشى خطوات ، فاذا هو يشاهد شراً مما رأى : هذا أبوبكر ، يلقاه سفيه من سفهاء مكة فيحثو عليه التراب ، وأولاء جماعة من المشركين يشهدون سفاهة صاحبهم فيضحكون ويسخرون . !

وزاد الهم بعثمان ، وغشيته غاشيـــية من الحزن والألم ! إنه ليحس التراب على رأسه ، وإنه ليشعر بمثل حر الرمضاء يشوى جسده هو ، وإن قلبه ليفيض غماً . إنه ليرى نفسه في جوار سيد قريش ، فما يمنعه ذلك أن يلقى من آلام النفس فوق ما يلقى صحابته من آلام الجسد !

وسار مثقل الرأس ، يحمل همه على كتفيه ، ضيق الخطا كأنما يطأ الشوك . وإذا واحد من المسلمين يلقاه فيحدثه بما لقى (آل ياسر) من أذى بني مخزوم : لقد مات (ياسر) في العذاب وماتت زوجه (سمية) طعيناً بيد أبي جهل ، وهذا (عمار بن ياسر) لا طاقة له بدفع ما يلقى من أذى بني مخزوم ، وما أراه إلا موشكا أن يلحق بأبويه . . . !

واشتد به الهم إذ سمع ما سمع بعد إذ رأى ما رأى ، ومضى يتحدث إلى خواطره ، فاذا هو على الأمان والطمأنينة في عذاب أشد مما يلقى إخوانه المستضعفون . وقال لنفسه : والله إن غدوى ورواحي آمناً بجوار رجل من أهل الشرك ، وأصحابي وأهل ديني يلقون من البلاء والأذى في الله ما لا يصيبني — لنقص كبير في نفسي ! إنه والله الفرار من الأجر والمثوبة ، وإن لهم عند الله لمنزلة هيهات أن يعزيني عن فقدها أنني في سلامة الأذى . بل إنه الفرار من حمل أثقال الايمان ، وإنه لأروح لقلبي أن ألقى ما يلقى إخواني في الله ، فاني لأوشك أن يغلظ قلبي فما آمن على نفسي من أوضار الشرك !

يا نفسي ، ما رهانك على أنك مؤمنة إذا لم تحملي أثقال الحياة راضية ؟

ما دليلك على أنك قاسيت في سبيل دينك وإنك لتفرين فرار المتمسك بدنياه ؟

ماذا قدمت — يا نفس — لله من حظك وراحتك فيكون لك في الآخرة أن تدعى وتستطيلي ؟

ألا إن الايمان هو أن ينالك ما نال المؤمنين ، وإن عذاب الناس لهو ثواب الله ، وما يصدق الخبر عن بسالة الجندي إلا أن تشهد له جراحه ، وما أنا رجلا إن لم أكن الآن رجلا . . !

ومشى إلى الوليد بن المغيرة فقال له : « يا أبا عبد شمس ، وفت ذمتك ، وقد رددت اليك جوارك ! »

قال الوليد : « يا ابن أخي ، لعله آذاك أحد من قومي . . ؟ »

قال عثمان : « لا ، ولكني أرضى بجوار الله ولا أريد أن أستجير بغيره . . ! »

قال الوليـد : « فانطلق بنا إلى المسجد فاردد علي جواري علانية كما أجرتك علانية »

فانطلقا حتى أتيا المسجد ، فقال الوليد : « هذا عثمان قد جاء يردّ علىّ جوارى »

وقال عثمان : « صَدَق ، قد وجدته وفيا كريم الجوار ، ولكنى قد أحببتُ ألا أستجير بغير الله ، فقد رددتُ عليه جواره ! »

ثم افترقا . وجلس عثمان يستمع إلى إنشاد (لبيد بن ربيعة) فى مجلس من قريش ، فقال لبيد : « ألا كلُّ شىء ما خلا اللهَ باطل »

قال عثمان : « صدقْتَ ! »

قال : « وكلُّ نعيم لا محالة زائل ! »

قال عثمان : « كذبت . . . ! »

وأعاد لبيد ، وعاد عثمان يقول : « كذبت ؛ نعيم الجنة لا يزول أبداً »

فغضب لبيد وقال : « يا معشر قريش ، والله ما كان يُؤذَى جليسُكم ؛ فمتى حدث هذا فيكم ؟ »

قال رجل من القوم : « إن هذا سفيهٌ فى سفهاء معه قد فارقوا ديننا ؛ فلا تجدْ فى نفسك من قوله ! »

وردّ عليه عثمان حتى شَرِىَ الشرُّ بينهما ، فقام الرجل فلطم عين عثمان فاخضرّت ، والوليد بن المغيرة بمجلس قريب يرى ما بلغ من عثمان ، فقال : « أما والله يا ابن أخى ، إن كانت عينُك عما أصابها لغنيّة ، لقد كنتَ فى ذمة منيعة ! »

قال عثمان : « والله إن عينى الصحيحة لفقيرة إلى مثل ما أصاب أختها فى الله ، وإنى لفى جوار من هو أعزُّ منك وأقدر ! »

فقال له الوليد : « هلمّ يا ابن أخى ، فعُدْ إن شئت إلى جوارك ! »

قال عثمان : « لا ... ... ! »

وسار فى سبيله عامر القلب بالايمان ، طيّب النفس بما يبذل فى سبيل الله ، قرير العين بأنه لم يلجأ إلا اليه . . .

***

ومضى المشركون فى عدوانهم لا رفق ولا هوادة ؛ وآذى النبىَّ ما يلقى صحابتُه ، فدعاهم إلى اللحاق بمن سبق من المهاجرين إلى الحبشة

وخرج عثمان فيمن خرج ، عائداً إلى المهاجَر النائى طاعةً لرسول الله . فأقام هناك ما أقام ، ضيّق النفس على سعة من العيش ، مكروباً من الغربة على الأمان والأذى !

وتصرّمت السنون عاماً بعد عام وهو يكافح الشوق والحنين ، حتى أُذِن له أن يفارق الحبشة بعد ست سنين ، لا إلى مكة الحبيبة إليه ، ولكن الى المهاجَر الثانى ، الى المدينة ، من مُغترَب الى مغترب . فما مضى عام وبعض عام على مقامه حتى ملّ غربتَه ، فودّع دنياه الى الوطن الباقى بقاءَ السموات والأرض ، الى جوار الله . ومات أوّل مَن مات من المهاجرين بالدينة !

وقبّله النبى (صلى الله عليه وسلم) وهو يبكى وعيناه تذرفان ، ووسّدَه الثرى ونفض يديه من ترابه ، ولكن ذكراه ظلّت حيّة فى قلبه ؛ فلما مات ولده (إبرهيم) زوّده بالتحية الى الشهيد الغريب ، وودّع ولده الواحد وهو يقول : « إلحقْ بسلفنا الصالح عثمان بن مظعون ! »

يا ابنَ مظعون ، فرغتَ من أمر الدنيا وآلامها ، بعد أن قضيتَ أيامك على الأرض تتقاذفك الفلواتُ من غربة الى غربة ، ولم تَبْكِ ، وبكتْ لك دموعُ النبوّة ؛ دموعٌ تُقدّمك الى الله بثيبك ، وتقدّمك الى التاريخ يترحّم عليك . وفى الوقت الذى يُسلَب الملوك فيه تيجانَهم وُضِع عليك التاج . . . !

طنطا محمد سعيد العريان

مجد الإسلام

وقفة على طلل

للأستاذ محمود غنيم

مالى وللنجم يرعانى وأرعاه !   أمسى كلانا يعاف الغمض جفناه
لى فيك ياليل آهات أرددها   أواه لو أجدت المحزون أواه
لا تحسبنى محبًا يشتكى وصبًا   أهون بما فى سبيل الحب ألقاه
إنى تذكرت — والذكرى مؤرقة —   مجداً تليداً بأيدينا أضعناه
أنى اتجهت إلى الإسلام فى بلدٍ   تجده كالطير مقصوصاً جناحاه
ويح العروبة كان الكون مسرحها   فأصبحت تتوارى فى زواياه
كم صرفتنا يدٌ كنا نصرفها   وبات يملكنا شعبٌ ملكناه
كم بالعراق وكم بالهند ذو شجنٍ   شكا فرددت الأهرام شكواه
بنى العمومة إن القرح مسكمو   ومسنا . نحن فى الآلام أشباه
يا أهل يثرب أدمت مقلتى يدٌ   بدرية تسأل المصرى جدواه
الدين والضاد من مغناكم انبعثا   فطبقا الشرق أقصاه وأدناه
لسنا نمد لكم أيماننا صلة   لكنما هو دين ما قضيناه

* * *

هل كان دين ابن عدنان سوى فلق   شق الوجود وليل الجهل يغشاه ؟
سل الحضارة ماضيها وحاضرها   هل كان يتصل العهدان لولاه ؟
هى الحنيفة عين الله تكلؤها   فكلما حاولوا تشويهها شاهوا
هل تطلبون من المختار معجزة   يكفيه شعب من الأجداث أحياه
من وحد العرب حتى كان واترهم   إذا رأى ولد الموتور آخاه
وكيف كانوا يداً فى الحرب واحدة   من خاضها باع دنياه بأخراه
وكيف ساس رعاة الإبل مملكة   ما ساسها قيصر من قبل أو شاه
وكيف كان لهم علم وفلسفة   وكيف كانت لهم سفن وأمواه
سنوا المساواة لا عرب ولا عجم   ما لامرئ شرف إلا بتقواه
وقررت مبدأ الشورى حكومتهم   فليس للفرد فيها ما تمناه
ورحب الناس بالإسلام حين رأوا   أن السلام وأن العدل مغزاه
يا من رأى عمرًا تكسوه بردته   والزيت أدم له والكوخ مأواه
يهتز كسرى على كرسيه فرقاً   من بأسه وملوك الروم تخشاه

* * *

سل المعالى عنا إننا عرب   شعارنا المجد يهوانا ونهواه
هى العروبة لفظ إن نطقت به   فالشرق والضاد والإسلام معناه
استرشد الغرب بالماضى فأرشده   ونحن كان لنا ماض نسيناه
إنا مشينا وراء الغرب نقبس من   ضيائه فأصابتنا شظاياه

* * *

بالله سل خلف بحر الروم عن عرب   بالأمس كانوا هنا ما بالهم تاهوا ؟
فإن تراءت لك الحمراء عن كثب   فسائل الصرح أين المجد والجاه
وانزل دمشق وسائل صخر مسجدها   عمن بناه لعل الصخر ينعاه
وطف ببغداد وابحث فى مقابرها   علّ امرأ من بنى العباس تلقاه
هذى معالم خرس كل واحدة   منهن قامت خطيباً فاغراً فاه
إنى لأشعر إذ أغشى معالمهم   كأننى راهب يغشى مصلاه
الله يعلم ما قلبت سيرتهم   يوماً وأخطأ دمع العين مجراه
أين الرشيد وقد طاف الغمام به   فحين جاوز بغداداً تحداه
ملك كملك بنى التاميز ما غربت   شمس عليه ولا برق تخطاه
ماض نعيش على أنقاضه أمما   ونستمد القوى من وحى ذكراه
لا در در امرئ يطرى أوائله   فخراً ويطرق إن ساءلته ما هو

* * *

ما بال شمل بنى قحطان منصدعا ؟   ربّاه أدرك بنى قحطان ربّاه
عهد الخلافة فى البسفور قد درست   آثاره طيب الرحمن مثواه
عرش عتيد على الأتراك نعرضه   ما بالنا نجد الأتراك تأباه
ألم يروا كيف فداه معاوية   وكيف راح علىٌّ من ضحاياه
غال ابن بنت رسول الله ثم عدا   على ابن بنت أبى بكر فأرداه

من الفلسفة الإسلامية

عينية ابن سينا

قصة الروح

للأستاذ زكي نجيب محمود



ادنُ مني يا صديقي واستمع إلى هذه القصة الممتعة الرائعة التي يرويها ابن سينا عن الروح . وما أدراك ما الروح ؟ هذا السر العجيب الذي سرى واستكنَّ بين أحنائك فلا تكاد تدري من أمره شيئاً ! وهل يداخلك شيء من الريب في أنك مزيج من مادة وروح ؟ فأما المادة فهي هذا اللحم والعظم ، وأما الروح فهي ذلك الفكر الرائع والخيال البارع وتلك الحركة المتوثبة الدافعة ، حتى إذا جاءك يوماً قضاؤك المحتوم ، انطلق كل من العنصرين الى سبيله ! فأنَّى لك هذا السر المكنون ، وأيان يذهب بعد الموت ؟ ذلك ما يرويه ابن سينا في قصيدته وما أنا محدثك به الآن — قال ابن سينا :

هَبَطَتْ اليك من المحلِّ الأرفع ورقاءُ ذاتُ تعزُّزٍ وتَمَنُّعِ

فقد كانت تعيش الروح أول أمرها مطلقة مجردة في الرفيق الأعلى ، ثم كُتِبَ عليها أن تهبط الى هذا الدرك الوضيع ؛ ولقد آثر فيلسوفنا الشاعر لفظ الهبوط على السقوط لأنها في رأيه لم تسقط الى هذا الحضيض من علٍ كما يسقط الحجر الجماد سقوطاً لاشعور فيه ، أو كمن ينتكس من أوج الجبل الى سفحه انتكاساً يقربه من الجماد المرغم على السير في طريق بعينها لا يملك لنفسه شيئاً ، إنما هبطت اليك الروح ؛ وفي لفظ الهبوط معنى الشعور والادراك ، من محلها الأرفع ، حيث تسبح العقول المجردة روحانيةً خالصةً لا تشوبها شائبة من مادة . . . ولكني عهدتك يا صديقي عنيداً ملحاحاً لا ترضى بالقول يُرْسل إرسالاً ، بل تقتضي محدِّثك الأمثلة يضربها توضيحاً لما يريد . وكأني بك تسائلني أو تسائل الشاعر : وكيف كان ذلك الهبوط ؟ فهو يجيب : إن شئت للروح في هبوطها مثلاً مما تعلم من ألوان الحركة ، فهي أشبه بالطير سابحةً في أجواز الفضاء ، محوِّمةً صاعدة هابطة ، وماذا ترى بين الأشياء التي تتحرك بالارادة أشد شبهاً بالروح من الطير في خفته ولطف جوهره ، وفي هبوطه وصعوده ؟ لعمري لقد وُفِّق فيلسوفنا ، بل لقد وفق أصحاب الفن منذ أقدم العصور في تصويرهم للملائكة أو ما يتصل بالملائكة من كائنات روحانية بالجسوم المجنَّحة إدراكاً منهم بهذه الرابطة القوية الصادقة بين خفة الأرواح ولطفها ، وبين رشاقة الطير ورقته . ولكن فيلسوفنا الشاعر لا يرضيه تشبيه الروح في هبوطها بالطير على عمومه ، بل أجال بصره في عالم الطير لعله يجد بينها نوعاً خاصاً يكون أقربها صلة بالروح ، فما أسرع أن ساقه صدق شعوره وكمال إحساسه الى الحمائم ، وهل تستطيع أن تدلني على طير هو أشد من الوُرْق استئناساً ووداعة ، وأطول من الورق حنيناً وأصدق بكاء ؟ ! وإذن فما أشبه الروح بالورقاء ، فهي قد نشأت في عالم قدسيٍّ رفيع ، مجردةً عن ملازمة المادة ومواصلتها ، فلما كان لها أن تهبط الى الجسد المادي ، طال ترددها واشتد تعززها وتمنعها ، وكانت فيما أحست من ألم كمن ينتحب

لما ابتغى يدَها السفاحُ أمهرَها نهراً من الدم فوق الأرض أجراه
ما للخلافة ذنبٌ عند شانئها قد يظلِمُ السيفَ من خانته كفَّاه
الحكمُ يَسلس باسم الدين جامحُه ومن يَرُمْهُ بحدِّ السيفِ أعياه
يارُبَّ مولًى له الأعناقُ خاضعةٌ وراهبُ الدَّيْرِ باسم الدِّين مولاه
إني لأعتبرُ الإسلامَ جامعةً للشرق لا محضَ دينٍ سنَّهُ اللهُ
أرواحُنا تتلاقى فيه خافقةً كالنحل إذْ يتلاقى في خلاياه
دستورُه الوحيُ والمختارُ عاهلُه والمسلمونَ — وإن شتّوا — رعاياه
لاهُمَّ قد أصبحت أهواؤنا شيعاً فامنن علينا براعٍ أنتَ ترضاه
راعٍ يُعيدُ إلى الإسلام سيرتَه يَرْعَى بَنيهِ وعينُ اللهِ ترعاهُ

محمود غنيم

(كوم حمادة)

بالبكاء ، حنيناً الى عالمها ذاك ، ونفوراً وازوراراً من الاخلاط الجثمانية التى كتب لها أن تهبط اليها فتعيش بينها فترة من زمان

محجوبةٌ عن كلِّ مقلة ناظرٍ   وهى التى سَفَرَت ولم تتبرقع

ألا ما أعجب الروح ! إنها تلازمك أينما حللت ، لاتفارقك إلا يوم تكون أنت لست اياك ، فهى قريبة منك ، بل هى أنت ؛ تسرى فى دمائك ، وتدب فى كل عضو من أعضائك ، ثم هى مع ذلك تمتنع عن النظر وتستعصى على الادراك ! فاذا ما حاولت رؤيتها تحجبت وأسدلت حول نفسها قناعاً صفيقا لاينفذ منه شعاع من بصر ، لماذا ؟ لأنها تذكُر ماضيها الجليل ، يوم كانت فى العالم الأقدس الرفيع ، فتأخذها العزة والكبرياء ، وتتعالى عن إدراك العيون ! وكيف تريدها على الظهور أمام مقلتيك وهما لم تُخلقا إلا لرؤية الأجساد المادية وحدها ؟ فأما هذه الماهية المجردة فهيهات أن تدركها بالنظر ؛ وكل محاولة منك فى هذه السبيل صائرة حتما الى فشل وإفلاس ، ولكن لاتيأس ياصاحبى ، فثم سبيل لادراكها غير هذه المقل ، وغير هذه الحواس جميعاً ، انظر اليها بعين العقل تجدها واضحة سافرة كاشفة عن وجهها لا تسدل من دونه البراقع والستور ، فهى إن كانت تأبى أن تبدو للحواس فذلك لأنها تعلو بنفسها عن هذا الدرك الخسيس ، وهى إنما تتضح وتجلو لكل عاقل من الناس ، يبحث عنها بعقله فى آثارها ودلائلها . إذن فالروح مع كمال خفائها وشدة غموضها عن العين ، يمكن إدراكها بالعقل لمن يريد معرفتها بالدليل والبرهان

وَصَلَتْ على كرهٍ اليك وربما   كرهت فراقك وهى ذاتُ توجع

لقد علمت أن الروح قد اتصلت بهذا الهيكل الجثمانى متأبية مقهورة مكرهة ، ولكنها من عجيب أمرها عادت فكرهت أن تفارق هذا الجسد الذى أرغمت على الحلول فيــه أول الأمر إرغاماً ، أما كونها جاءت مكرهة فلأنها حين هبطت اليك كانت تعلم أنها إنما تتصل بكتلة من المادة . ليس بينها وبينها تآلف وتجانس ، إذ ليست هى فى تجردها وروحانيتها شبيهة بالجسد فى ماديته ، وهل تستطيع أن تظفر بأنس من رفيقك إذا لم يكن بينك وبينه تجانس فى الصفات ؟ فان أُرغِمْتَ على هذه المرافقة إرغاماً على ما بينكما من تنافر وتناكر ، فانت لاشك غاضب كاره ؛ وأما كونها تعود فتكره فراق الجسد فذلك لأنها قد تمكنت منه وسَرَت فى أنحائه سريانا شــديداً ، فتشبثت به تشبثاً قوياً متينا ليس انحلاله أو زواله هنة هينة ، وأنت تستطيع أن تلمس ذلك فى نفسك إذا هممت بالانتحار ، فلن تجد من نفسك إقبالاً على الموت ورضى به واطمئنانا اليه ، ومعنى ذلك أن روحك قد استطابت مُقامها الجديد بعد نفور ، ولكن حذار أن يذهب بك الظن إلى أنها قد ارتبطت بالجسد ارتباطا بلغ من القوة والمتانة حد الاندماج ، بحيث إذا زال الجسد زالت الروح تبعاً له ، كلا ، إنما ترتبط الروح بالجسد ارتباطاً يقع بين القوة الشديدة والضعف الشديد ، فلا هو الى القوة التى تدمجها فيه ادماجاً ، ولا هو الى الضعف الذى يُيَسِّر لها سبيل الفرار . ولكنى لم أحدثك بعد عن علة كرهها لفراق الجسد ، وقد جاءته مكرهة أول الأمر . أما ذلك فلأنها رأت أنها تستطيع أن تتخذ من هذا الجسد أداة للخير والفضيلة ، لقد كانت فى حياتها المطلقة الأولى خالية من الصفات الفاضلة الايجابية جميعا ، وهاهى ذى قد رأت فى الحواس سبيلا قويمة تحصل بها من الأخلاق والعلم حظا موفورا ، وإذن فاتصالها بالجسد قد جعلها عارفةً بعد سذاجة وجهل ، متحركةً بعد خمول وسكون ، فهل تدهش بعد هـذا إذا رأيت الروح جازعة فازعة حين يدنو منها الأجل المحتوم الذى يفصل بينها وبين زميلها انفصالاً ليس بعده من لقاء ؟ وهل تعجب إذا رأيتها حين اتصالها بالجسد تدافع جهدها عنـه لتدفع ما يتهدَّدُه من علة أو مرض ، وتحرص وسعها أن يكون موفور الحظ من السلامة والعافية ؟

أَنِفَتْ وما أَنِسَتْ فلما واصلت   أَلِفَتْ مجاورةَ الخرابِ البلقع

إذن لقد هبطت الروح الى هـذا الهيكل مُعْتَرِضَةً عنه مزدريةً له صلفاً منها وتيها ، وحقَّ لها ذلك ، فهى خالدة لاتخضع للفناء ، وهو وضيع يتماوره الكون والفساد ، لهذ أنفت منه ولم تأنس له بل استكبرت عليه وأبت أن تنزل بنفسها الى حضيضه الأسفل ، وظل النفور بينهما حيناً من الدهر لم يَطُلْ ، حتى عرفت أنه أداة قويمة صالحة لتحصيل الفضيلة والخير ، عندئذ أَنِسَتْ به ورضيت بالاقامة معه فى إخاء وائتلاف ، وما هى إلا أن وضح أمامها الطريق وقام الدليل قاطعاً على أنها ستحقق بالجسد مرادها من الكمال ، فقويت العلاقة واشتدت الملازمة على الرغم من علمها أن هـذا الذى ترافقه وتزامله لن يلبث حتى ينقلب خراباً بلقعاً لا غناء فيه ، إذ هو صائر إلى الفناء بعد حين

يقصر أو يطول . ولعلك تلاحظ أن فيلسوفنا قد عبر هنا عن العلاقة بينهما بلفظ المجاورة قاصداً متعمداً ، لأنه أراد لك أن تعلم أنها ليست من الجسد بمثابة الأبصار من العين مثلا ، يكادان يكونان شيئاً واحداً ، ولكنها منه كالملاّح من سفينته يديرها ويدبر أمرها . ثم هو بعدُ يستطيع أن يستقل بوجوده بعيداً عنها ، فهي علاقة تجاورٍ لا علاقة دمج وإدغام

وأظنها نسيت عهوداً بالحمى ومنازلا بفراقها لم تقنع

نعم : لقد اطمأنت إلى الجسد بعد صدٍّ ونفور ، وأنست به بعد وحشة ، وبلغ بها الاطمئنان والانس حداً نسيت معه تلك العهود والمواثيق التي أُخِذَتْ عليها أيام كانت في عالمها الرفيع السامي ، وركنت إلى غير جنسها ركوناً لا تحب معه الفراق ، وقد بلغ منها ذلك النسيان لمنازلها الأولى حد الغلوّ والاسراف ، فهي لم تقنع بمجرد فراقها لعالمها الأول ، بل زادت عليه عشقها للعالم الجديد ، وهنا كأنما تحس من فيلسوفنا إشفاقاً على الروح أن تكون قد رضيت بالأدنى عن الأعلى لتغيّرٍ في صفاتها وتحوُّلٍ في إدراكها وفسادٍ في طبيعتها

حتى إذا اتصلت بهاء هبوطها من ميم مركزها بذات الأجرع
علقت بها ثاءُ الثقيل فأصبحت بين المعالم والطلول الخُضَّع

يا ويح النفس ! والله لكم أخشى أن تكون الروح قد مازجت المادة حتى فسدت عنصراً ، فهي لم تكد تهبط من أبعد الذرى لتمس عالم المادة حتى علقت به وهو بعدُ لا يأتلف إلا من الخسيس الكثيف الذي يَنْدُرُ أن يكون سبيلاً إلى الكمال (ذات الأجرع هي المادة الأرضية الكثيفة أي البدن) ، نعم ، لم تكد تهبط الروح ، وتدب في مادة الجسد حتى علقت بها هذه المادة الجثمانية وأحلّتها بين أجزائها وطيِّ ثناياها ، بين معالم الجسد وأطلاله الخربة المتداعية . بين عظامه وغضاريفه ولحمه وشحمه ، التي تخضع للفناء وتؤول للبطلان وتنقلب إلى الدثور . ولكن لعلها قد دبت بين أجزاء الجسد الفانية لا لتجرى مجراها . ولكن لتستخدمها في تحصيل المعارف والفضائل

تبكي إذا ذكرت عهوداً بالحمى بمدامع تهمى ولم تتقطع

لقد حُمَّ القضاء ووقعت الواقعة ، فقد حان للروح حينُ فراقها وجاء أجلُها ، وها هي ذي قد فصلت عن رفيقها وخلفته وراءها رماداً وتراباً ، فهي إذا ما ألقتْ بنظرها إلى هذه الأوصال المفككة ، والى هذا البيت المعمور ، وقد دب فيه الخراب والدمار ، عظم عليها الوَجْد وَجلّ في عينها الخطب ، وقد تتزاحم أمامها ذكريات الماضي أيام كانت تنعم بزمالة هذا البدن المحظوم في شتى ألوان النعيم ، فتتفجع وتتوجع وتحزن وتأسى ، فان كانت روحاً خيرة فاضلةً كانت فجيعتُها أن افتقدتْ أداةَ الخير والفضيلة إذ افتقدت الجسد ، وإن كانت روحاً شريرة خبيثة مستهترة كانت حسرتُها أن سُلبت وسيلة اللذة والمتاع — ألا وهي الجسد كذلك

وتظل ساجعة على الدِّمن التي درست بتكرار الرياح الأربع

ولا تحسبن الروح بعد فراقها للجسد قد غفلت عنه وأنسيته بل انها تتردد اليه الحين بعد الحين ، فتقف بإزائه باكية نادبة ، وقد أبت قريحةُ الشاعر الفيلسوف إلا أن تصور الروحَ ، وقد جاءت تنشُدُ أطلال الجسد فتجد منه بقية باقية يهيِّج منظرُها ما كان كامناً فيها من شجون ، وإنما تعظم الحسرة إذا بقيت من منازل الأحباب آثارها لما تثيره في النفس من ألم وحنين ، أما تلك الرياح الأربع التي ما فتئت تهب على مادة الجسد حتى درستها درساً ، فيغلب أن تكون الحرارة والبرودة والرطوبة واليبوسة التي لا تنفك ، تعتور الصخور الصلدة حتى تفتتها هشيما تذروه الرياح هنا وهناك ، فتنطمس المعالم الأولى انطماساً تَشُوه بعده وتَتَنكّر ، ولستُ بحاجة الى أن ألاحظ لك يا صديقي أن في هذا البيت تصريحاً من الفيلسوف بخلود الروح بعد الموت ، فهي باقية خالدة تروح وتغدو ، ويستحيل عليها التحلل والفناء

إذ عاقها الشَّركُ الكثيف وصدَّها
قفصٌ عن الأوج الفسيح المِرْبَع

ولكن ليت شعرى فيم بقاء الروح بين هذه الأطلال الدارسة باكيةً نادبةً ، وماذا يعوقها أن تعلو وتصعد إلى حيث العقولُ المجردة في الملأ الرفيع ؟ أليس في ذلك فكاك لها من شوائب المادة ونقائصها ، وتحرر من قيود الحس وأصفاده الثقيلة الباهظة إلى حيث تسبح في تلك الأرجاء الفسيحة تتسرح فيها تسرحاً مطلقاً لا يصدها ضيق ولا تزاحم ؟ لعمرى إنها الدنيا التي تجتذبها كما يجتذب الشركُ سوابحَ الطير الطليق بما يُلقى فيه من حَب ، فهذه اللذة والشهوة والمتاع كفيلة أن تغرى النفس إغراء يكون لها غلا ووثاقاً ، وليس شركُ الدنيا الذي تطوِّق

به النفوسَ تطويقاً من ذلك الضربُ الهين الخفيف الذى تحطم قضبانُه وسلاسله فى سهولةٍ ويسر ولكنه شركٌ عاتٍ قوى كثيفٌ يحوك حول السجين آلافاً من الحبائل والحوائل التى يتعذر منها الخلاص إن لم يستحل وإذن فهذا الجسد للروح بمثابة القفص للطير القنيص ، لا تستطيع أن تغادره أو تجاوز حدوده إلا إذا أراد لها ذلك واضعها ، ولكنه قفص على ما ضرب به حولها من سياج منيع مُشبَّكُ القضبان فيه من النوافذ مايسمح للسجينة أن ترسل خلالها الفكر والبصر إلى أرجاء الكون ، وما تلك المنافذ التى تتسلل منها الروح إلى أنحاء الوجود إلا الحواس من بصر وسمع وما اليهما ، وإلا العقل تتقصى به أطراف الأرض والسماء

حتى إذا قَرُبَ المسيرُ إلى الحمى ودنا الرحيلُ إلى الفضاء الأوسع
وغدت مُفارقةً لكل مُخلَّفٍ عنها حليف التُّرْبِ غير مُشيَّع

هكذا ارتبطت الروح بالجسد ارتباطاً مكيناً . حتى إذا دنت ساعة الرحيل وحان أجل الفراق لهذا البدن إلى حيث تنطلق فى الفضاء الرحب الفسيح ، وأخذت تقطع ماينه وبينها من صلات وعلائق وأسباب ، وهو تلك الكتلة المادية المخلفة المعطلة المطروحة بعد المفارقة تحت أطباق الثرى دون أن يُلتفت اليه أو يعنى بشأنه احتقاراً له وازدراء ، بعد أن خلَّفته الروح وخلعته ، نقول إذا دنت ساعة الرحيل وفارقت الروح جسدها . . .

هجمتْ وقد كُشف الغطاءُ فأبصرتْ ماليس يُدركُ بالعيون الهُجَّع

عندئذ يزول عنها حجاب البدن فينكشف الغطاء فتدرك ما كان يستحيل عليها إدراكه أيام اتصالها به ، ذلك لأن الأرواح المتلبسة بالأجساد إنما تكون رقوداً هجعاً أو كالرقود الهجع لأنها إذ تكون عالقة بالأبدان تكون محجوبة عن الادراك الذى تُحصِّله النفوس المجردة كما يحتجب النائم عن إدراك ما يدركه اليقظان ، إذن فالروح عندما تُلقى الجسدَ وتطرحه تكون كأنما تكشف عن بصيرتها غطاء طالما حال بينها وبين مطالعة الرفيق الأعلى بمايغمسها فيه من عَرَضٍ مادى زائل باطل مصيرُه إلى فناء ، أما إذا فارقت البدن فقد خلصت من أغلالها وانحسر عن بصرها الغشاءُ فأبصرت أسرار الحق صافية خالصة وانكشف لها الغيب وأيقنت أنها كانت أثناء حياتها مع الجسد غافلةً راقدةً وقد تنبهت الآن واستيقظت

وغدت تغرِّد فوق ذِروة شاهق والعلمُ يرفع كل من لم يُرفع

فاذا كانت قدنفضت عن نفسها ما كان لحقها من غفلة ورقاد ، إذن فقد تجردت من قيود المادة وأصفادها وغدت عنصراً عقلياً صرفاً لاتشوبه شائبة من كدورة أو نقص ، مبرأةً عن حاجات البدن التى تجذبها إلى أسفل ، واتصلت بالعالم الروحانى المجرد ، فأحست بالنشوة والسعادة وغردت سروراً لما ظفرت به بذلك الاتصال ؛ ولعلك هنا تحتج على الفيلسوف وتعترض حديثه ، فما لهذه الأرواح قد صعدت إلى العالم الأقدس ولم تلبث حول أجسادها مُحوِّمة باكيةً راثية إلْفَها الحبيب ، فهو يجيبك إنما ترتفع إلى هذه الذروة الشاهقة السامية ، تلكم الأرواح التى كسبت من العلم صدراً محموداً وحظاً موفوراً ، وإن العلم لجدٌ كفيل أن يرفع إلى حالق مامن شأنه أن يكون فى الحضيض الأخس فضلاً عما يكون له بطبيعته اتصالٌ وقربى بالعالم الأشرف الرفيع

فلأى شئٍ أُهبطت من شامخ عالٍ إلى قصر الحضيض الأوضع

ولكن قف ! أأنت محدثى ياصاح فيم هذا العناء كله إن كان مصير الروح فى نهاية أمرها أن تعود إلى حيث بدأت السير ؟ فلقد زعمت لى أنها هبطت من علٍ فحلت بالبدن حيناً من الدهر ثم أخذت سبيلها آخر الشوط إلى مستقرها الذى صدرت عنه وفاضت منه ! ما هى الحكمة الباعثة للنفس أن تهبط من ذراها هاوية إلى الدرك الأسفل . ؟ !

إن كان أهبطها الآله لحكمة طويت عن الفذ اللبيب الأروع
فهبوطها لاشك ضربة لازب لتكون سامعة لما لم تسمع

هكذا تساءل صاحبى فى دهشة وعجب ، قال : إن كان الله جل وعلا قد أهبطها لحكمة خفيت عن بصائرنا ، واستعصت على إدراكنا ، بل طويت عمن بلغ منامن الحكمة أروعها وأبعدها غوراً ، فلا ريب فى أن الله تعالى إنما ضرب الهبوط على النفس ضرباً وألزمها به إلزاماً لعلها فى هذا العالم الأرضىِّ تُوفَّقُ الى اكتساب المعرفة ، واستيفاء أسباب الكمال ، إذ كانت فى أول أمرها جاهلة ساذجة غافلة ، فأهبطها لتسمع مالم تكن قد سمعت به من العلوم والأخلاق ؛ وسبيلها الى ذلك هى الحواس والعقل

وتعود عالمةً بكل خفيةٍ فى العالمَين فخرقُها لم يُرقع

فالهم إن كانت هذه رسالتها التى هبطت من أجلها ، أعنى أن

تعود بعد زيارتها الى الدنيا عالمة بالاسرار الخفية فى العالمين ـ عالم الغيب والشهادة ـ فلا سبيل الى تحقيق ما جاءت من أجله ؛ لأنها مهما حصلت من فروع العلم وجوانب الأخلاق ؛ ومهما أسرفت فى التحصيل فهى قاصرة مقصرة ، وكيف سبيلها الى ذلك والعلوم لاتنتهى عند حد ، وحتى إن أمكن تحصيلها فلا تكفى لها مدة الحياة على قصرها ؛ ولكن ليكن هذا فليس الفشل فيما نظن مما ينتقص من نبل الغاية المقصودة ويحط من شرف الوسائل المؤدية الى تلك الغاية

قال صاحبى : لقد زعمت أو زعم فيلسوفك ابن سينا أن الروح إنما هبطت فَسَرَتْ فى البدن ففارقته وعادت أدراجها ، والله لايفعل شيئاً إلا لحكمة ، إذا كان ذلك لم يكن لهواً ولا عبثاً ؛ فلأى شىء هبطت من الأعلى الى الأدنى ، واعتاضت الباقى بالفانى ؟ قلت : إنها هبطت فتعلقت بالجثمان لتتخذه وسيلة الى الكمال على شرط أن تكون من أصحاب الفضيلة والخير . قال : وإن كانت الروح من الملأ الأعلى فكيف تكون ناقصة وقد حدثتنى فى صدر الحديث أن ذلك الملأ مجردٌ مطلقٌ كاملٌ كمالاً محضا ، وأنه خير خالص ، كما حدثتنى الى جانب ذلك أن عالمنا هـذا شر ـ أو على أكثر تقدير مزيج بين الخير والشر فما قولك الآن إن الروح قد هبطت من ملأها الأعلى الى هذه الأرض تنشد عن طريقه الكمال ؟ ! وهل يكون الشر وسيلة الى الخير والكمال ؟ لعمرى لو كانت العناصر المجردة لا يتم كمالها إلا اذا اتصلت بالمادة فما أوجب أن يهبط عالم الأرواح كله ليمتزج بالأرض ومادتها ؟ قلت : جوابك ياصاحبى فى هذا البيت الآتى :

وهى التى قطعَ الزمانُ طريقَها حتى لقد غَرُبَتْ بغير المطلع

فقد كان مراد النفس وأملها أن تبلغ حد الكمال بما يرتسم فى صفحتها من الصور العقلية ، لكن الزمان لم يمهلها وا أسفاه ! فقطع عليها السبيل وصدها عما كانت تسير نحوه ، وذلك باهلاكه للبدن وهو أداتها فى تحقق رغبتها ، ولكنها إلا تكن قد ظفرت بكل شىء ، فهى لم تفقد كل شىء ، لأنها لم تغرب ـ حين غربت ـ ساذجة جاهلة كما أشرقت أول الأمر بل عرفت الكمال وعرفت النعيم الذى يكون لها لو بلغت هذا الكمال ، وكفاها بهذه المعرفة حافزاً قد يدفعها إلى متابعة السير يوماً آخر

فكأنه برق تألق بالحمى ثم انطوى فكأنه لم يلمع
أنعم برد جواب ما أنا فاحص عنه فنار العلم ذات تشعشع

ولكن فيلسوفنا الشاعر يعود فيوافقك يا صديقى إلى حد كبير ، ان النفس عند فراقها للبدن تكون فى الحقيقة كأنها لم تُفِدْ شيئاً وكأنها لم تصحب البدن قط ، وما أسرع ما انقضى زمن إقامتها فيه ، فقد اختفت سريعا كالبرق الخاطف ، وعادت كأن لم تكن بالأمس شيئاً مذكوراً . وإنه ليختم حديثه معك بحفزك وإثارة الطُّلَعَة فى نفسك لعلك تمعن فى التفكير والنظر لترى جوابا لهذا السؤال المُرْبك : فيم هبوطُ الروح للوصول الى كمالها ، ثم فصلُها قبل أن تصل ؟ ! قال محدثى : انى لأرى شبها قويا بين هـذه القصة التى قصصتها علىَّ عن ابن سينا وبين ما رويته لى بالأمس عن فلسفة أفلاطون من أن النفس كانت تسبح فى عالم المُثُل صافية سعيدة مفكرة ، ثم حلَّت بالجسم وتعلقت به ، فاذا وافت الانسان منيتُه عادت من حيث أتت ، قلت نعم ولعل لى معك فى هذا حديثا آخر

زكى نجيب محمود

مقتل عمر بن الخطاب

نقلها عن جرائد ذلك العهد

الأستاذ ابراهيم عبد القادر المازنى



اختلف المؤرخون فى مقتل عمر رضى الله عنه ، فمنهم من قال إن أبا لؤلؤة حقد عليه لأنه لم يخفف عنه الخراج الذى ضربه عليه سيده المغيرة بن شعبة ؛ وقال آخرون بل ائتمر به الهرمزان وهو قائد فارسى أظهر الاسلام وأضمر الغدر ، وجفينةُ وهو من نصارى نجران الذين أجلاهم عمر عن جزيرة العرب . وقد فاتنى — لسوء حظى — أن أشهد هذه الحادثة الضخمة وتأخرت عنها أكثر من ثلاثة عشر قرناً . ولو حضرتها لعرفتُ كيف أقول ! ولكنه لا يجدى الأسف على شىء فات ؛ وما لا يدرك كله لا يترك كله ؛ وقد وقعت لى «أعداد» من « صحف » ذلك الزمن ، مثل جريدة « يثرب » ، وجريدة « دار الهجرة » ، وجريدة « العذراء » ، وغيرها من الصحف الأولى التى كانت تصدر — صباحاً أومساء — فى صدر الاسلام . وأكبرها جميعاً « يثرب » ، وكانت تظهر فى الفجر ، فيتخطفها الناس وهم خارجون من صلاتهم بالمسجد ، وكان لها مكاتبون فى الأمصار قاصيها ودانيها ، يوافونها بأخبارها وأحوالها ، وسيرة ولاتها وعمّالها ، وجلهم — أى المكاتبون — ممن دخلوا مع رسول الله مكة ، واشتركوا فى حروب الردة ، وقاتلوا مع سعد بن أبى وقاص ، وأبى عبيدة ، وخالد بن الوليد ، فى فتوح العراق وفارس والشام ، ومن أجل هذا كانت الثقة بأنبائهم عظيمة ، والاطمئنان إلى صدقهم فى الرواية تاماً ؛ ولا عجب بعد ذلك إذا كانت « يثرب » كبرى الصحف فى ذلك العهد وأوسعها انتشاراً ، وأوثقها حالاً . ومما ينبغى أن يذكر من مفاخر هذه الجريدة أن العرب إلى عهد عمر رضى الله عنه كانت تتعامل بالنقود الفارسية والرومية فدعت « يثرب » إلى ضرب نقود عربية وألحت فى ذلك ؛ ورأى عمر رضى الله عنه أنها على حق ، فأمر فضربت الدراهم على شكل النقود الفارسية ، فلم تقنع « يثرب » بهذا ، وطلبت أن ينقش اسم الله تعالى واسم رسوله تمييزاً لها عن نقود الفرس ، فاستحسن الخليفة رأيها ، فأمر فكتب على الدراهم : « الحمد لله » على وجه ، و « محمد رسول الله » على الوجه الآخر . وقد زعم حاسدوها وشانئوها — من الفرس المغلوبين على أمرهم — أنها ما دعت إلى ذلك إلا ليسهل بيعها ، فينتشر أمرها ويعظم ربحها ، وقالوا : ألا تراها قد أشارت بضرب الدراهم ولم تذكر الدنانير قط ؟ فذاك لأن الدراهم خسيسة ، ولأن النسخة من جريدة « يثرب » تباع بدرهم ! ولكن هذا طمن الفرس الموتورين فلا يُسمع فى العرب

على أن من المحقق أن حاجة « يثرب » الى سنة تؤرخ بها ، هى التى أملت عليها الدعوة الى وجوب الاتفاق الى سنة معينة للتاريخ منها ، غير عام الفيل وعام الفجار وما أشبه ذلك مما لا آخر له ، فكان أن استشار الخليفة أصحابه فى ذلك فأشار عليه علىّ كرم الله وجهه — على رواية « يثرب » — باتخاذ السنة التى هاجر فيها الرسول إلى المدينة مبدأً للتاريخ الاسلامى

بعد هذا الاستطراد الذى لم نر منه بداً للتعريف « بيثرب » ورفعة مقامها وعلو منزلتها ، نقول إنا وجدنا فيما عندنا من أعدادها وصفاً مفصلاً لجريمة مولى المغيرة ، فرأينا أن ننقله بحروفه حسما للخلاف ، وإحقاقاً للحق

***

قالت فى ملحق أصدرته ضحى الأربعاء ٢٦ ذى الحجة سنة ٢٣ هجرية تحت العنوانات الآتية المكتوبة بالخط الجليل على سبعة أعمدة : « علج فارسى يطعن أمير المؤمنين وهو يقيم الصلاة — ويصيب ١٣ رجلا ثم ينتحر — أهى مؤامرة فارسية نصرانية ؟ — تحريات مندوبى يثرب الخصوصيين »

ثم قالت الجريدة :

« لم نكد نفرغ من طبع العدد الأخير من « يثرب » وندفع به الى الباعة ، ونذهب الى المسجد للصلاة ، حتى فوجئنا باعتداء أثيم مروّع من علج من علوج فارس على حضرة صاحب الجلالة أمير المؤمنين وخليفة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، الفاروق عمر بن الخطاب وهو يسوّى الصفوف فى المسجد ويهمّ باقامة الصلاة . وهو اغتيال دنىء وغدر خسيس تنكره الشهامة ولا تعرفه العرب ، ولو أن مائة من أمثال هذا العلج الزنيم تصدوا لجلالته ، وهو يراهم لخلط عظمهم بلحمهم وأكلهم وتأدم بآبائهم وأجدادهم الى قابيل ، ولكن هذا العلج جاءه من وراء ظهره ، وأخذه غدراً وطعنه غيلة ، وهو رافع يديه يكبر للصلاة

وقد سبق لنا أن حذرنا الحكومة من هؤلاء الفرس والنصارى الذين يفدون على مدينة الرسول ؛ فانها - على وفرة الماء فيها بالقياس الى غيرها من بلاد العرب - يابسة الضرع ، وغيرها من الأمصار التى فتحناها أخصب ، والعيش فيها أرغد ، فمجىء هؤلاء الأغراب الموتورين الى المدينة وإقامتهم فيها أمر مريب ، فما يعقل أن يطيب لأمثالهم فيها عيش ، وهم الذين نشأوا فى ظلال الدعة وألفوا حياة اللين والترف ، وهذا ما جناه السماح لهم بالاقامة بين ظهرانينا

ودعونا مراراً الى اتخاذ الشرطة والحراس ، والعسس بالليل ، ومراقبة الأجانب ، وقلنا إن خروج الخليفة وليس معه حارس ، ولا فى يده هو سلاح ، ونومه فى الأحيان الكثيرة فى ظل شجرة أو جدار لا يخلو من خطر ، وأنه تعرض لا تؤمن مغبته ، ولو أنه ليس بالمدينة إلا العرب لما أشفقنا ، ولكن الأغراب كثروا بيننا ، وهم من بلاد داستها جيوشنا ، ودوخت أممها ، وثلت عروشها ، فهم حاقدون مضطغنون ، لا يؤمن غدرهم ولا يتقى شرهم إلا بالحيطة والتحرز منهم . وقد صدق ظننا مع الأسف ، وليته خاب ألف خيبة ، نسأل الله اللطف فيما وقع »

***

ثم فصلت الجريدة الحادث كما وقع فقالت :

« دخل جلالته المسجد ليصلى بالناس على عادته ، وكانت فى يده الدرة التى لا تفارقه ، فاخترق الصفوف والناس يفسحون له ، ويحيونه بأحسن من تحيته ، حتى صار الى الصدر فاستقبل الناس ليقوّم صفوفهم ، وذاك دأبه ، فان جلالته يكره الفوضى ويحب النظام ، ثم ألقى الدرة من يمينه - وكان يسوّى بها الصف ويشير للمتقدم أن يتأخر ، وللمتأخر أن يحاذى الذى بجانبه ، ثم اتجه الى القبلة ورفع يديه وكبّر ، ولم يكد صوته الجهورى يرتفع بالتكبير حتى هجم عليه رجل - ظهر فيما بعد أنه غلام المغيرة - وفى يده خنجر وضربه به فى كتفه ، فانحنى أمير المؤمنين قليلاً من عنف الصدمة وقوة الضربة على غير توقع منه ، فمال معه الجرم وكاد يسقط ، غير أنه اعتمد بيسراه على ظهر جلالته ونزع الخنجر الذى أصاب عظمة الكتف ، وكان جلالته قد تمالك ، وذهبت عنه دهشة المفاجأة فدار ليواجه المتعدى عليه ، فعاجله الجانى بطعنة فى خاصرته ، وأسرع فنزع ، وتشدد جلالته فضربه بجمع يده فى صدره وهو يقول : « تريد قتلى يا ابن الفاعلة ؟ » فارتد المجرم خطوات ، ثم كر عليه بالخنجر يطعنه طعناً سريعاً فسقط أمير المؤمنين على الأرض

وكان الناس قد أذهلتهم هذه الباغتة ، وأصابهم منها لأول وهلة كالرعب ، فتراجعوا والتوت صفوفهم ، ثم أفاقوا ، فصاح بعضهم يطلب الشرطى - وأين هو حتى يلبى النداء ؟ - وهجم منهم عليه رهط ، فأعمل فيهم خنجره يضرب يميناً وشمالاً كالمجنون ، فأصاب منهم ثلاثة عشر رجلاً ، وألهم الله بعضهم فألقى عليه برنسا - كما تلقى على الجواد الجامح ثوباً - فأعماه وشل حركته ، ثم تكاثروا عليه ، وأيقن هو أنه هالك لا محالة فطعن نفسه فمات !

وأقبل الناس بعد ذلك على أمير المؤمنين واجمين محزونين - حتى الجرحى منهم - فردهم جلالته عنه باشارة وسأل :

« هل فيكم عبد الرحمن بن عوف ؟ »

فتلفت الناس ينظرون ، فاذا ابن عوف يفرقهم ويقول :

« نعم يا أمير المؤمنين »

فقال جلالته : « تقدم ، فصل بالناس »

فكانت دهشة ، ولكن عمر هو عمر ، لا يشغله خطب عن دينه وواجبه ، ولا يجرؤ أحد على خلافه من هيبته ، فصلى ابن عوف بالناس صلاة خفيفة ، وعيونهم على جلالته ، وهو ساكن وادع معتمد على الأرض بمرفقه ، يصلى معهم بشفتيه ،

ثم أقبلوا عليه فحملوه ، يريدون أن يذهبوا به الى داره ، فقال :

« مهلاً ، ناولني درتي يا هذا »

فناولوه إياها ، فأخذها وهو يقول وعلى فمه ابتسامة :

« أرأيتم ماريشالاً بلا عصاه ؟ »

فابتسموا لابتسامه ، ولكن دموعهم كانت تساقط على لحاهم وأيديهم التي خضبها دمه الزكي ، فنظر اليهم وهم يبكون وقال يزجرهم :

« بل الحمد لله الذي لم يجعل منيتي بيد مسلم »

أما الجاني فهو أبو لؤلؤة فيروز غلام المغيرة بن شعبة ، وأصله فارسي من نهاوند ، وقد كتب الينا مندوبنا القضائي يقول :

منذ بضعة أيام جاء فيروز هذا إلى أمير المؤمنين يشكو إليه أن مولاه المغيرة بن شعبة يشتط في الخراج الذي ضربه عليه ويرهقه بما يتقاضاه منه ، وسأله التخفيف عنه

فسأله جلالته : « كم خراجك ؟ »

فقال : « درهمان في كل يوم »

فسأله : « أو كثير هذا عليك ؟ »

قال : « نعم ، وحقك »

قال جلالته : « دع هذا ، وقل ما صناعتك ؟ »

قال الغلام : « نحاس ونقاش وحداد »

فقال جلالته : « ثلاث صناعات في يديك ، وتشكو رقة الحال وتستكثر درهمين ؟ كلا ليس خراجك بكثير على ما تصنع من الأعمال » وأعرض عنه

وقد يؤخذ من هذا أن فيروز حقدها على جلالته ، وأسرها في نفسه ، وأضمر أن ينتقم ، ولكنا لا نعرف أن الناس يقتل بعضهم بعضاً من أجل درهمين ، فكيف باغتيال خليفة ؟ ثم إن تحرياتي تدل على أن الأمر كان مبيتاً بليل ، فقد حدثني عبد الرحمن ابن أبي بكر — وهو ثقة — أنه رأى عشية أمس الهرمزان الفارسي وجفينة النصراني وأبا لؤلؤة هذا ، وهم يتناجون ، فلما رأوه اضطربوا ، وسقط من أحدهم خنجر له شعبتان ، يقول ابن أبي بكر أنه هو نفس الخنجر الذي ضرب به أبو لؤلؤة أمير المؤمنين . فماذا كانوا يتناجون في غلس الليل ، وهذا فارس أعجمي ، وذاك نصراني عربي وثالثهم مملوك المغيرة ؟ وماذا جمع العربي النصراني ، والفارس المجوسي وإن تظاهر بالاسلام ؟

ومعروف أن الهرمزان هذا كان من قواد الفرس الذين هزمهم سعد بن أبي وقاص ، وقد أظهر الاسلام لينجو بجلده ، وخان المسلمين مراراً ثم زعم أنه تاب ، ومثله خليق أن يبطن العداوة للعرب وألا يغفر لهم أنهم مزقوا عرش الأكاسرة وغلبوهم على بلادهم ومجوسيتهم ، وسووا بين الناس فلا سيد ولا مسود ، ولا شريف ولا وضيع

أما جفينة فأمره مشهور ، وهو نصراني من نجران ، أتى به سعد بن أبي وقاص ليعلم الناس الكتابة ـ فيا سوء ما أتى به سعد من هذا ! وقد كان أمير المؤمنين خاف انتقاض النصارى في نجران عليه ، وهو في حرب الفرس والروم ، فأجلاهم عن جزيرة العرب ثم عوضهم وأوسع لهم من الأرض في الشام والعراق ، وأعطاهم خيراً مما تركوا ، ثم هزم المسلمون جيوش هرقل وهو حامي النصرانية ، فجفينة لا ريب مضطغن لذلك ؟ وقد وجد في الهرمزان حليفاً ونصيراً ، وفي فيروز وهو فارسي كالهرمزان ، أداة لارتكاب الجريمة المدبرة

وهذا هو الذي عليه الرأي العام ، ولو تُرك الناس لرأيهم وخُلّي بينهم وبين ما يريدون لفتكوا بالفرس والنصارى وشربوا دماءهم ، فان النفوس فائرة ، والصدور مضطرمة ، ولكنهم يكبحون أنفسهم ويحملون عليها ويردونها على مكروهها احتراماً لأمير المؤمنين وانتظاراً لما يفعل ، شفاه الله وعافاه

بل هذا هو رأي أمير المؤمنين نفسه ، فقد اجتمع إلى جلالته في داره بعد أن حُمل اليها ، المهاجرون والأنصار ، فقال لابن عباس وكان معه :

« أخرج اليهم فاسألهم أعن ملأ منهم ومشورة كان هذا الذي أصابني ؟ »

فعاد اليه ابن عباس يقول إن القوم يقولون « لا والله ، ولوددنا أن زاد الله في عمرك من أعمارنا »

فقال جلالته : « إذن أبرق إلى العراق وفارس وأنبئ العمال بما كان ، وحذرهم أن ينتقض الناس على غرة منهم ، فما يدريني ويدريك ، لعله تدبير من هناك . »

وقد أرسلت البرقيات اللاسلكية إلى عمال الأمصار

بالاستعداد لكل طارئ فلا خوف من هذه الناحية فان قواتنا كافية لقمع ماعسى أن ينجم من الفتن . »

وعند مثول هذا الملحق للطبع أبلغنا مندوبنا مايأتى تليفونياً :

عرفتم أن المجرم أبا لؤلؤة عليه لعنة الله وملائكته ، أصاب ثلاثة عشر من المصلين بخنجره ، كانوا يحاولون القبض عليه وانتزاع الخنجر منه ، فالآن أقول إن سبعة منهم كانت جراحهم خطيرة ، فتوفوا من النزف ، وسيجهزون للدفن وتشيع جنازتهم بعد صلاة العصر باحتفال كبير يمشى فيه المهاجرون والأنصار والبدريون ، وقد أمر جلالة الخليفة بأن ينوب عنه فى تشييع الجنازة ، صهيب

أما الستة الآخرون فجراحهم خفيفة ، وقد بعث اليهم جلالة الخليفة بابنه عبد الله بن عمر ليعودهم ويستفسر عن حالهم ، فشكروا له هذا العطف السامى ودعوا الله أن يعجل بشفائه

هذا وقد فحص الطبيب الشرعى الخنجر فتبين أنه مسموم فلا حول ولا قوة إلا بالله

وأذيعت نشرة طبية موجزة جاء فيها أن الاصابات ست فى الكتف والخاصرة والظهر ، وإن النزف منها شديد ، وقد سُقى جلالته لبناً فخرج من إحدى الطعنات أبيض كما هو ، فنصح الطبيب لجلالته بأن يعهد ، تولانا الله برحمته

صدر العدد التالى من « يثرب » مجللاً بالسواد ، وفيه نعت أمير المؤمنين الى العالم الاسلامى ، ورثته رثاء طويلاً ، ولخصت سيرته فى الجاهلية والاسلام ، ولانحتاج أن ننقل من هذا شيئاً فانه معروف ، ووصفت تجهيزه للدفن ، وتشييع جنازته والصلاة عليه بالمسجد ، وحمله على سرير رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ودفنه معه الى جانب أبى بكر الصديق ، وسردت أسماء المشيعين من الأنصار والمهاجرين وغيرهم ، وروت فيما روت أن علياً وعثمان تقدما للصلاة عليه فردهما ابنه عبد الرحمن وقال منكراً عليهما ذلك : « لا إله إلا الله ! ما أحرصكما على الأمرة ! أما علمتما أن أمير المؤمنين قال ليصل بالناس صهيب ؟ » وأثبتت تصريحاته قبل موته ، لابن عباس ، ووصيته لمن يخلفه ، وقالت إنه دفع بها الى ابنه عبد الله وقال له : « إذا اجتمع الناس على رجل — أى أمير للمؤمنين — فادفع اليه هذا الكتاب وأقرئه مني السلام » وما أمر به فى اختيار خليفته ، وما أوصى به أبا طلحة الانصارى والمقداد بن الأسود ، وكل هذا مشهور فلا داعى لنقله

ولكن حادثاً وقع بعد ذلك ، تعد « يثرب » مسئولة عنه ، فقد ذهبت الى أن قتل عمر كان عن تآمر من جفينة النصرانى والهرمزان الفارسى ، وأنهما هما اللذان أغريا أبا لؤلؤة بقتله ، وروت ماشهد به عبد الرحمن بن أبى بكر وغيره فى ذلك ، وأيدت ذلك بالدليل العقلى ، فهاج عبد الله بن عمر ، ومضى الى ابنة أبى لؤلؤة فقتلها ، ثم الى جفينة والهرمزان فألحقهما بها ، انتقاماً لأبيه ؛ ولم يكفه هذا ، فهم بأن يقتل رجالاً من الأنصار والمهاجرين ظنهم شركاء فى دم أبيه ، وشاع عزمه على ذلك حتى بلغ صهيبا ، ولم يكن الذين وُكل اليهم التشاور فى أمر الخلافة قد فرغوا ، فبعث صهيب عمرو بن العاص الى عبد الله ، وكان عمرو داهية ، فلم يزل يحاوره ويداوره ويمسح منه فى الذروة والغارب حتى سكنت نفسه ، فأخذ منه سيفه ، ثم جاء سعد بن أبى وقاص فقبض عليه وحبسه فى داره

ولما تولى عثمان بن عفان الخلافة ، استشار أصحابه فى أمر عبد الله بن عمر ، فأشار بعضهم بقتله فيمن قتل ، ولكن آخرين استنكروا أن يقتل الأب أمس ويقتل الابن اليوم ، ووجد عمرو بن العاص مخرجاً من هذه الورطة ، فقال لعثمان :

« يا أمير المؤمنين ، إن الله قد أعفاك أن يكون هذا الحدث كان ، ولك على المسلمين سلطان ، إنما كان هذا الحدث ولا سلطان لك »

أى قبل أن تكون خليفة ، فمال عثمان الى الرأفة ، ورفض رأى علىّ بن أبى طالب ، وكان يذهب الى قتل عبد الله بن عمر ، وقال عثمان : « أنا وليّهم ، وقد جعلتها دية واحتملتها فى مالى »

وقد أثنت يثرب على مشورة ابن العاص ، ومروءة عثمان بن عفان ، وقالت إن هذا درس عسى أن ينفع العجم والنصارى فيصرفهم عن التآمر مرة أخرى ولكن فريقاً من الأنصار كتبوا اليها يفنّدون رأيها ، ويقولون إن الواجب كان أن يقتل ابن عمر ؛ فكان هذا أول خلاف فى عهد عثمان